العربي باطما

# الألم

الكتاب الثاني من السيرة الذاتية

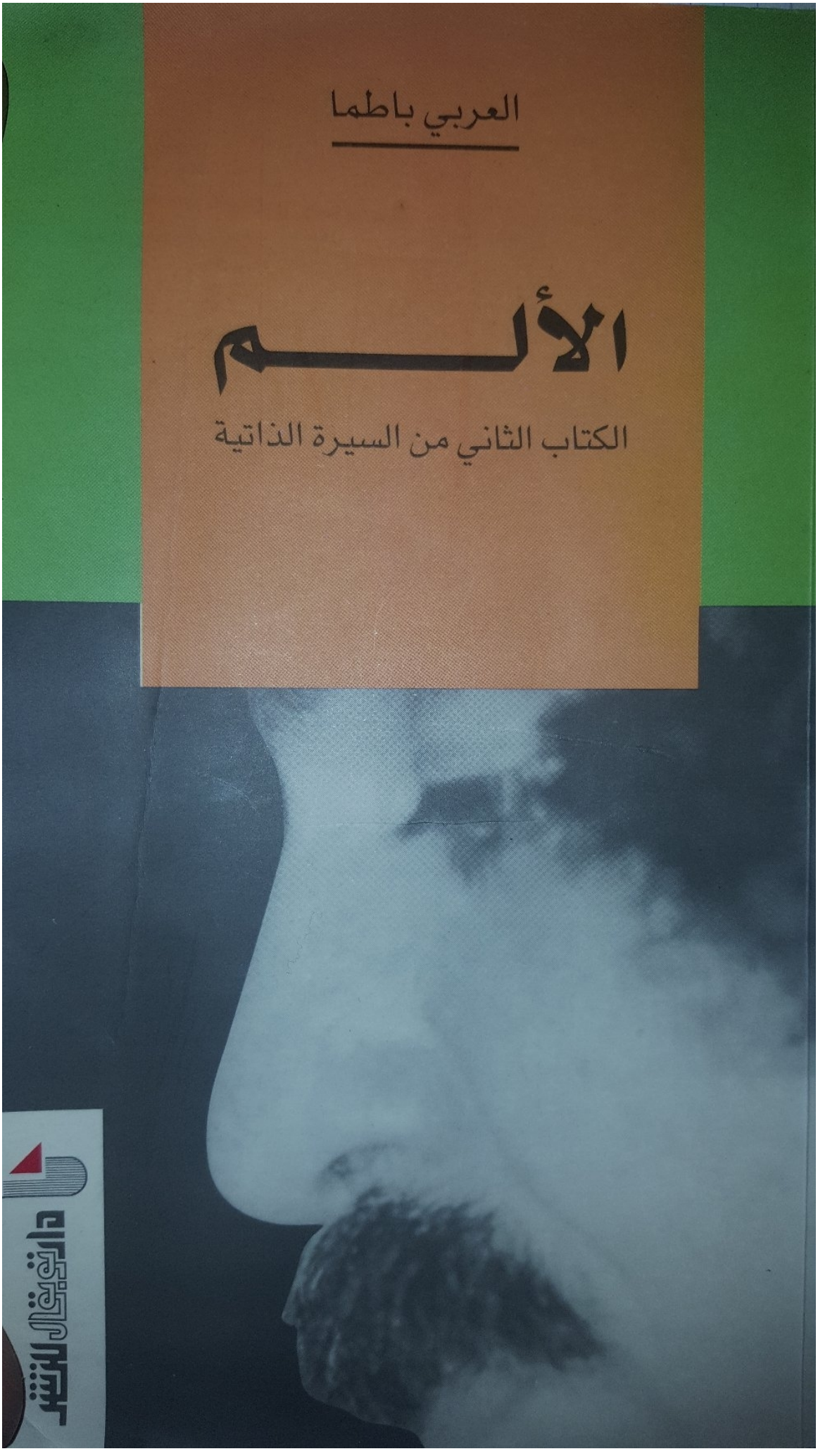



دار توبقال للنشر

# الألم

الكتاب الثاني من السيرة الذاتية

## للمؤلف

## حوض النعناع

دارالأفاق الجديدة، الدارالبيضاء، 1991

دارتوبقال للنشر، الدارالبيضاء، 2011

## الرحيل

الكتاب الأول من السيرة الذاتية

دارتوبقال للنشر، الدارالبيضاء

الطبعة الخامسة، 2009

## ملحمة لهمام حسام

الجزء الأول

دارتوبقال للنشر،2002

الجزء الثاني

دارتوبقال للنشر، 2005

الجزء الثالث

دارتوبقال للنشر، 2007

الجزء الرابع

دارتوبقال للنشر، 2008

العربي باطما

# الألم

الكتاب الثاني من السيرة الذاتية

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير، الدار البيضاء 20300 - المغرب
الهاتف/ الفاكس : 23 23 34 22 5(212) - 38 40 40 22 5(212)
الموقع : www.toubkal.ma البريد الالكتروني : contact@toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
ذاكرة الحاضر

الطبعة الخامسة 2011
©جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 1998 / 213
ردمك : 9981-880-48-5

«إذَا أرادَ المولَى سبحانَهُ وتعالى
وتركني حيّاً لأنْهيهَا»

المكان : أجلس لوحدي في بيتي، أقرأ أفكاراً لممْتُها، وأوجدتها للجزء الثاني من السيرة الذاتية. لكن كل ذلك، بالرغم من وجوده كأفكار، وذكريات، ومواقف، لا يقنعني، وأجده عارياً، ويمكن لأي كان أن يقول هذا معاش، أو سبق لي أن عشت مثل هاته الذكرى في مثل ظروف كهذه.

وإن كان ذكرى فيمكن لشخص آخر أن يعيش مثلها، ذكرى جميلة أو قبيحة. نعم. قد تختلف التجارب، وكذلك الذكريات، لكن في بعض الأحيان تكون متشابهة.

فجأة جاءتني فكرة حمقاء، كحرياتي.

فكرة الجزء الثاني.

وهي، لماذا لا أكتب «الرحيل إلى الألم»، مادام فهم الكلُّ كتابي الأول بأنه رحيل إلى الموت؟ نعم. الرحيل إلى الألم. إلى البلاء والشدة والمرض، والاختناق. وكذلك في بعض الأحيان، إلى الضحك المؤلم، والفرحة المؤلمة، والشفاء الذي لن يكون. وسيكون.

من هنا أتتني فكرة كتابة الجزء الثاني، عن أشد محنة عشتها في حياتي إلى حدود هاته الساعة، وكتابة هاته الكلمات، ضاربا، كما في الأول، أي كما في الكتاب الأول، عرض الحائط جميع الأكاديميات الكتابية، إن صح التعبير، ومؤمنا بأن اللغة لها قانونها، لكني أريد أن أكتب، أن أعبر... ولا يمكن لي الرجوع إلى الوراء، لدراسة قوانين الكتابة.

أقول إن المحنة التي عشتها، ولا أزال أعيشها، وما رأيته من مرض، وما نعيشه داخل المستشفى - مستشفى محمد بن عبد الله - كمرضى، وممرضين، وأطباء، وبروفيسورات، وأهل، لهي تعبير على أن الإنسان، بدون إرادة وعزيمة، لا يساوي شيئاً.

ففي سنة 1993، كنت أقوم بإنتاج من تأليفي للتلفزيون المغربي، وكان ذلك من سوء الصدف في مستشفى بالدار البيضاء. كنت أقف لأشاهد اللقطة، وهي الطبيب المكلف بالحراسة في ذلك اليوم، فإذا به يرفع يده، ويمر بها على عنقي، ثم يقول لي :

- يوجد كيس مائي بعنقك.

تحسست المكان لأول مرة، فاكتشفت أنه بالفعل هنالك شيء صغير، صلب، في عنقي. ثم أجبت :

- وما العمل ؟

فأخبرني بأنه يمكن نزعه، وذلك بواسطة عملية بسيطة، لا تستغرق مدتها نصف ساعة.

واتفقنا على موعد بعد نهاية تصوير المسلسل، وكان ذلك.

# الفصل الأول

هنا يرفع الستار الأسود، عن خشبة سوداء. تنار إنارة سوداء، ويدخل ممثل أسود، يرتدي السواد.

❑❑❑

نحن البدو، عندما «تكون عندنا» عملية جراحية، أو استدعاء إلى «الجدارميا».. أو الذهاب عند طبيب نفساني، تصير هاته الأشياء فيها بكاء، ونواح.

ففي الأول، ولو أن العملية قد تكون بسيطة كعمليتي، يكون الأهل منشغلين بها، ومنفعلين بها، فيضخمونها، ويظهرونها في حجم أبي الهول، حتى أن البعض يرى فيها موته، أو موت قريبه الذي ستجرى له العملية، فتنفعل، ونقدم كل السواد أمامنا. فكم من مريض جاء ليداوي الزكام، فإذا به يشعر بأن قلبه يؤلمه ورأسه وبطنه.

وقد يكون هذا الانفعال هو سبب موته.

أعرف امرأة ذهبت عند الجراح لتنزع كيس من ثديها، ومن كثرة انفعالها وخوفها هربت من غرفة العمليات.

وإذا كان استدعاء يكثر التساؤل، والتوقعات، والتخمين، فترى الواحد منا، قبل ذهابه إلى المخفر، يتساءل عما صنعه، وعما قام به أبناؤه وعن، وعن، وعن... وفي الكثير من الأحيان يكون ذلك الاستدعاء من أجل شيء بسيط.

أما الذهاب عند الطبيب النفساني، فهذا معناه الحمق.

في ذلك الصباح، كنت أودع أمي، وكأني ذاهب إلى المقصلة.

عادة أنا لا أخاف من عملية صغيرة، ولا كبيرة. فلقد أجريت لي عملية الزائدة وكان الطب في البلاد لا يزال متأخرا، وكان من الممكن أن يموت الإنسان بسبب هاته العملية.

وأجريت لي كذلك عملية لكيس صغير، كان قد نتئ في صدري، بمعدات وآلات جراحية بسيطة، فلم يروعني شيء، ولم أشعر بخوف كالذي كنت أشعر به في ذلك الصباح... فلقد كنت أودع أمي، وكأني أودعها الوداع الأخير...

كانت تبكي، وتجفف دموعها، بـ «دفينتها» وتدعو لي بالنجاة. فيما أخي الأصغر يقول لها بأن العملية بسيطة، وبأننا سنعود إلى البيت، بعد مضي ساعة، أو ساعتين.

سألت نفسي في ذلك الصباح، عن سبب خوفي فلم أجد جوابا.

ركبنا السيارة، وتوجهنا إلى المستشفى، والساعة لم تتجاوز السادسة صباحاً.

كان موعد العملية على الساعة الثامنة صباحا. ولما وصلنا، وجدنا الممرض المكلف بالجراحة الليلية على علم بقدومنا، فأدخلنا إلى جناح خاص بالذين ستجرى لهم العمليات.

كان هنالك أطفال وشبان وشيوخ.

بعضهم نيام، وبعضهم يئس من إثر الألم.

رائحة الضراط وبقايا أعقاب السجائر تزكم الأنف.

التفت إليَّ الحارس، فسألته عن المكان الذي سننتظر فيه.

فأشار إلى السرير، في آخر القاعة. توجهنا إليه أنا وأخي، ثم جلسنا بجانب طفل، كنت أظنه نائما، لكني رأيت عينيه تنظران إليَّ من تحت الغطاء. وبعد برهة، وقد حقق النظر في، عرفني، فقال :

- صباح الخير يا باطما.. لقد شاهدتك في التلفزة «أنت باطما ياك».

- صباح الخير يا بني... نعم أنا باطما.. أمستيقظ أنت ؟

- أنا لا أنام إلا قليلاً..

- ما بك ؟

- عندي مرض، في اللوزتين، وأشعر بألم في الحنجرة.

كان ذلك الطبيب الصديق بالفعل مختصا في الحنجرة واللوزتين والأذنين والأنف.

قلت :

- هل ستُجْرى لك عملية ؟

- ليس اليوم.. غداً إنْ شاء الله.. لقد قضيت أسبوعين في هاته القاعة أنتظر دوري. وأنت، كم قضيت ياباطما ؟

أحرجني سؤاله، فأجبت من غير أن أبالي بما سيكون إحساس الطفل :

- أنا.. لم أقض شيئاً.. فأنا أتيت اليوم.

أزاح الطفل الغطاء، وردَّ مندهشاً ومتسائلاً :

- دخَلْتي اليُومْ، وغادْينْ إفتْحُوا ليكْ اليُومْ ؟

- ربما اليوم، ربما في يوَم آخر.

قام الطفل، وتوجه إلى الحمام لغسل وجهه، فرأيت قامة نحيفة تمشي وسط «بيجاما» حمراء.

كانت براءة الطفولة التي في وجهه، وطول قامته، يخبران برجل قد بدأ يعارك الدنيا وتعاركه.

قال أخي :

- إنه يسأل كثيراً.

- إنه طفل.

على الساعة السابعة والنصف، جاء الطبيب.

فتح باب القاعة وأخذ يبحث عني بعينيه.

بعض الناس - المرضى - كان قد استيقظ، فحيا البعض منهم برأسه، وهو يتابع بحثه، ولما وصلني بصره... أشار إلي مجيبا، ثم صاح :

- سأغيّر ملابسي، وآتي ياباطما.. استعدّ للعملية.

لما خرج، قال الطفل :

- سعداتكْ أخُويَا.. أنْت غَادْينْ إسَرْبيوكْ.

نحن البدو، نتطير كثيراً من فأل الصباح. فـ «غادْين إسَربيوكْ» هاته، أثارت في عقلي عدة تخمينات.. معناها.. إنهم سيسرعَون بك.. لكن إلى أين؟ وفي ماذا؟ هل «سَيسرْبيونَني» إلى القبر، أم إلى الحياة؟ هل ستنجح العملية أم لا؟ هل سأعود إلى هذا السرير أم سيأخذونني إلى «لأمُورك»؟

«غَادْينْ إسَرْبيوكْ»

- إنهَ طالع نَحْس، قلت للطفل.

- مَاشي شَغْلَكْ أصَاحْبي، مالَكْ بَاسل مَالَكْ.

صمت الطفل، وابتسَم أخي لأنه علم بما قصده، ولما رَدّيت عليه بتلك الطريقة، نهرت أخي، وأمرته بأن يفتح الصاك، ويخرج «الفُوقيّة» والبلغة.

فنفذ الأمر، والابتسامة لابسة محياه، ثم ساعدني على تغيير ملابسي، وجلسنا ننتظر الطبيب.

إسْمُ باطْمَا، الذي صاح به الطبيب، جعل بعض المرضى لما يقوم إلى الحمام يُحييني التحيةَ الصباحية، كما جعل آخرين لا يعيرونني التفاتاً.

الطفل، لما رجع إلى فراشه «أعْطاني بظهْره» فتركني لتخميناتي، وتحليلاتي.

هل ستنجح هذه العملية ؟

هل سأنجو ؟

هل ستكون عملية بسيطة كما قال الطبيب؟ وهل؟ وهل؟ وهل؟

كان أخي، عندما يشاهد شرودي، يقول : تشجّعْ، العملية بسيطة، وستنتهي في وقت وجيز، والطبيب من أمهر الجراحين في المستشفى، إلخ.

كان يشجعني، وفي تشجيعه لا يعي بما كان يخالج صوته من قلق وتلعثم يضهران كذبه.

وجاء «لَمْراني»، وهذا هو اسمُ الطبيب.

قمت بتثاقلَ.

شيء بداخلي كان يقول.. ألْعَرْبِيْ.. وَا العَربِيْ أترك الكيس في مكانه، فهو من لحمك ودمك.

«وَا العرْبِيْ اهْبَشْ تَجبَدْ احنَشْ».. «لْبَسْ حْوَايْجَكْ.. اعْتذرْ للطَّبيب».
«وَارْجعْ فْحالَكْ.. تَا واحَدْ ما غَادي إحَاسْبَكْ.. هَدي غيرْ ذَاتَكْ»

كنت، وأنا أردد هـذا داخلي، أمشي وراء الطبيب، وكان شيء يدفعني إلى الأمام من سرداب إلى سرداب.

من بهو إلى بهو.

من دهليز إلى دهليز.

فجأة رأيت غرفة العمليا، وقد كُتِبَ على بابها «غرفة العمليات».

دخلت.

وجدتُ اثنين يرتديان بدلة خضراء.

ابتسم لي البعض، والبعض حياني برأسه، فأشار لي الطبيب بالصعود فوق طاولة طويلة، باردة صُنعت من الحديد.

قلت للطبيب :

- أين القِبْلَة ؟

ابْتسَم ورَدّ :

- في كل مكان هنا، تمدّدْ.

جاء المكلف بالبنج، فقلت له :

- أليس هنالك خطر ؟

- هل أنت خائف ؟

- لا.. لكني كنت من المدْمنين على المخدّرات.

ضحكَ وردَ :

- ألهَذَا من شقْوَى المخدرات.. «غادي إنشْطَـكْ أبَى عرُّوبْ» «مدْ إدَّكْ...».

أحسست بوخز الحقنة. التفتُ برأسي إلى اليمين.

شعاع الشمس يتسرب من نافذة صغيرة يتصاعد ببطء فوق جدار الغرفة الرمادية أو الزرقاء. لا أتذكره الآن.

سمعتُ البنّاج، يقول لي :

- عُدَّ من واحد إلى ثلاثة.

بدأت في قراءة آية الكُرسي.

فتحت عينيَّ في الساعة الخامسة مساء، وأنا في الصالة التي كنت فيها صباحاً، وبجانب فراشي أناس يحيطون بي، معهم أخي، والمخرج السينمائي مصطفى الدرقاوي، وزوجته خديجة. قال لي مصطفى، وهو يدغدغ خدي :

- حْبيبو، كيف حالك ؟

أجبتَ :

- أتعلم بأن الفيلم الذي صورته في خريبكة، وكان من المفروض أن أقوم ببطولته، ولم يتحقق ذلك، أتعلم بأن الغلط كان من جهتك ؟

ضحك مصطفى، وقال لخديجة :

- إنه بخير.

ذهب مصطفى وزوجته. فأخذ أولئك الشباب، الذين يحيطون بي، يدفعون السرير الذي أنام فوقه. ثم أخرجوني من الصالة، ووضعوني في غرفة لوحدي، وأخبروني بأن الطبيب أوصى بذلك.

في الليل زارني الطبيب، وسألني عن حالتي الصحية، وقال لي بأن العملية كانت صعبة، وكانت عكس تخميناته. فهو كان يظن بأن لا يوجد إلا ذلك الكيس، لكنه لما قلع الكيس وجد سلسة مرتبطة بعضها ببعض من الرقبة إلى تحت الإبط، وأنه لولا عطف الله، وإسراعي بالعملية لكانت يدي ستُشَلّ على فكرة.

الآن، وأنا في سنة 1997، رجعت تلك الأورام، لكن هاته المرة تحت الإبط.

أربعة أورام، وبما أنه قيل لي بأن الأمل في التداوي بالشِّيمْيُو قد فُقِدَ، رفضتُ إجراء عملية لهاته الأكياس، لأنه بماذا ستنفعني هاته العملية ما دمتُ لن أشفى إلا إذا أراد العلي سبحانه وتعالى؟ فلأترك مرضي في جسدي، ليرافقني إلى القبر، فعلى الأقل أكون قد انتقمت منه، وأخذته معي في رحيلنا المجهول.

إني أعلم بأني على حق.

المهم. ولا شيء مهم إلا أنا.

قضيت تلك الليلة في المستشفى، وأنا أشعر بالفرح، والغبطة، لأن العملية نجحت، فطردت الأفكار السوداء من عقلي، وأكلت كل ما أرسلته لي أمي من أكل.

في الغد سألت الطبيب عن اليوم الذي أغادر فيه المستشفى، فقال لي بعد ثلاثة أيام.

رأيت أشياء.

وسمعت أشياء في ذلك المستشفى.

الرشوة.

المحسوبية.

عدم فهم الممرضين للمرضى... ومعاملتهم بغضب.. سمعت ممرضاً يتوجه لمريضة وهي تتألم وتناديه، لما اشتد بها ذلك الألم، قائلاً :

- إتكَلْمي بشْويًّا ألألّة، راني ما خدَّامْشْ عندْ أبَّاكْ.

وأشياء أخرى، سأحكيها في مكانها.

أنا، كانوا يحترمونني، لأنني صديق الطبيب، ولا يتكلمون معي عن الرشوة، أو حتى التلميح بها. بل ينفذون كلام الطبيب، متظاهرين بأنهم يعملونه عن طيب خاطر.

الأطباء يعْلَمُون بما يقوم به الممرضون.

والممرضون يعلمون ما يقوم به رؤساؤهم. وإنها لدائرة تدور على رحى منظمة عمادها. «أنصرُ أخَاك ظالماً أو مظلوماً»، اللهم إلا إذا كانت الأشياء ظاهرة أو افتضح الأمر، فهنا يبقى المثل في دار النسيان، ويأتي محله المثل القائل «راسي يا راسي».

وكان هنالك فتيات مريضات بأورام الحنجرة، أو الثدي، أو بالأذن أو الأنف.

فتيات في مقتبل العمر، وصبيات صغيرات، ونساء، وعجائز أشرفن على سن اليأس.

أطفال، وشيوخ، وشباب.

الكل في طابق، طويل ومستطيل. في آخره يقع مكتب الطبيب، وفي أوله مكان للفحص.

كانت أولائك الفتيات، عندما يؤم المساء الدنيا، يخرجن من القاعات والغرف، ويتوجهن إلى غرف الشبان، ويبدأ النقاش، والابتسام، والإغراء، ونفخ الريش.

وكان بيتي يأتي إليه الكثير منهن، وكذلك من الزوار، لأخذ صورة، أو للنقاش حول حالتي، وعن المجموعة. حتى أن الطبيب قال لي : يجب وضع لافتة يكتب عليها «منع الزيارة»، وذلك طلبا للراحة. لكن لما وضعت هاته اللافتة صارت شؤماً على المكان. من قائل يقول بأنه مشرف على الموت. «فيه السيدا.. فيه السرطان.. فيه مرض مجهول...». وهكذا جعلتْ مني تلك اللافتة عدواً للكل، فقلت للطبيب عن ذلك، فنزعها.

آه...

إننا شعب نهوى، ونزوق، وننسق الإشاعات.

في يوم، وأنا جالس في بيتي، ومعي أصدقاء وصديقات، إذا بالتلفون يرن، فطلبت من صديق بأن يجيب، فقال الصديق، الكلمات المتعارف عليها في التلفون، كألو.. نعم.. هذا هو الرقم، إلخ..

وفجأة سكت، ونظر إليّ، وقد تغيرت ملامحه، ثم أخذ يجيب بهمهمات، الشيء الذي شد انتباهي له، فأرجع السماعة، وقال لي :

- بَاطْما، كُونْ رجَلْ.

- هل لك شك في ذلك؟ ما الذي جَرى يا السِّي محمَّد ؟

- عظم الله الأجر في الوالدة.

- ماذا ؟

- الشخص الذي اتصل بك الآن في البادية، حيث توجد أمك. أخبرني بأنها توفيت هذا المساء.

انقلب الضحك إلى بكاء.

تغيرت أحوالُ الكل.
ذهب الأصدقاء.
ورُفعت الجلسة.
فذهبنا أنا وصديقين إلى البادية.
ما يقرب من مائة وخمسة وعشرين كلمتراً.
حرت ملياً، وأنا في حالة ألم، وبكاء، والصديقان يحاولان مواساتي، بينما أحدهما، الذي كان يسوق السيارة، كاد أن يوقعنا مرتين في حادثة.
ووصلنا البيت. فوجدت أمي جالسة، وسط صديقاتها، ومع الأهل، أمامهم صينية الشاي، وهم يغنون فرحين.
أنا. في مصابي هذا.
كل مرة، يأتي صديق إلى بيتي هلعاً، وعندما يجدني يقول : قيل لي بأنك توفيت.
لما غادرت المستشفى الذي أجريت فيه العملية، كانت في جيبي ورقة كُتبَ عليها بعض الأدوية، فذهبت إلى البيت، وأنا كلني راحة وارتياح.
وفي صباح، قمت سعيداً أغني، وأصفر، وأتناقش مع الخادمة. جاء صديقي أحمد السنوسي، فتبادلنا الحديث حول عدة أشياء. ولما ذهب، جلست للكتابة. وفجأة رَنَّ التلفون.
أريد الآن قطع هاته اليد، التي امتدت، ورفعت السماعة.
يقول مثل بربري : اليدُ التي تخرج من الجيب، قبل أن يفكر العقل، يجب قطعُها.
لا أدري، هل لهذا المثل الذي سقته علاقة بالموضوع أم لا. المهم، هو أني كتبته.
- ألُو، شْكُون ؟
- ألو العْربي.
- إيه هو هذا. شكون ابْغَاهْ ؟
- أنا نعيمة اللي كنت معاك في السْبيطَارْ، عقلْتي عليَّا ؟
- آه.. نعيمة.. إيه.. عقلت عليك.
قلت هذا بشكل عفوي، بينما أنا أحاول تذكرها.. فكان ذلك بدون جدوى.. وتشعب حديثي معها، وأنا أحاول اقتناصها، بينما هي ترد ضاحكة، وتتمنّع، وتعتذر.. وبرهة قالت :
- ما فْراسَكْ وَالُو، آشْ واقع لِيكْ ؟
- آشْ بْغَى يوقَعْ ليَا ؟
- آهي نَاري الصْكع راهُمْ لقَاوْ فيكْ المرضْ الحي.
كالبرق على العين.

كالظلام.
كالاختناق.
تعوذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت مازحاً :
- ماذا تقولين يا نعيمة ؟ كفاك استهزاء بي.
- أقسم لك بالله، بأني سمعت هذا من فم صديقك الطبيب ومساعده.
- ماذا سمعت ؟
- أنهم أجرو تحاليل للعينات التي أخذوها منك، فوجدوها مصابة.
ارتخت يدي، قبل أن ترخي السماعة.
عرقٌ بارد.
خوفٌ.
شعورٌ بالبكاء.
ثم إغاثة من العقل، ربما قد تكون تلك الفتاة أرادت التهكم بي.
أرجعت السماعة إلى مكانها، ثم استلقيتُ معلّقاً عينيّ بالسقف.
رباه.
ما هذا النبأ ؟
إنه نبأ قاس.
رباه.
إن هاتـه الكلمـة.. كلمة السرطـان.. لم تتردد في عقلي طيلة ما مضى من حياتي.

نحن البـدو، أعطينا للسـرطان أسـماء أخرى، كـالمرض الحي، أو المرض الخبيث.

في طفولتي، أخذتني أمي، أنا وأخي، عند أحد الأطباء في مدينة سطات. فكانت هنالك امرأة قوية، وبدوية، تقف مع رجل وهما يتحدثان مع الطبيب، وقد لبست تلك المرأة «فوقية» وأنزلت أحد أكمامها من على كتفها، وظهر ثقب في عنقها، تماماً في المكان الذي أزلت منه تلك الأكياس المائية.

وشاهدت واقعة مضحكة، وقعت لأبي رحمه الله. وهي أنه كان قد وجد كيسين في ظهره، أراهما لي، فقلت له لابد من الذهاب عند الطبيب، وكان أبي يكره هذا. فقال لي، سنذهب غدا إن شاء الله، وبيّتُّ عزمي على أخذه في الغد، وفي الصباح لما ذهبت إلى غرفته قال بي بأنه قد شُفي من ذلك، وأنه أجرى العملية لنفسه. كيف كان ذلك ؟ الأمر كان سهلاً بالنَسبة له، مع شيء من الصبر وشراء ربع كيلو «جير» ونصف بصلة حمراء. تضع البصل فوق الكيس، ثم تضع فوقها الجير.. فيكون البصل يجر الصديد، ويفتح الكيس والجير يعين البصل في الحرارة التي تفتح الجلد لخروج الصديد.. أو السائل الموجود في الكيس.

أراني ظهره، وهو يضحك من دهشتي. فكان بالفعل ما قاله.

سمعت بهذا المرض الذي أصبت به لما رأيت المرأة، وقالت أمي إنه المرض الخبيث، وسمعت اسمه للمرة الثانية، لكن هاته المرة أسمعه باسم «الكُونْصيرْ»، وهي كلمة مأخوذة عن التسمية الفرنسية.

- «نَاري ألصنْكَعْ، راهُم لْقَاوْ عندك الكُونْصيرْ..».

أواه.. ما هذا ؟

ماذا قالت هاته المرأة ؟

تلفنت لعمر السيد، وأخبرته بما قالت الفتاة، لكن ردهُ لم يقنعني. فلقد قال :

- إنه مرض العباقرة. والمفكرون الكبار هم الذين يصابون ويموتون بالسرطان.

لم أدر هل كان يستهزئ بي، أم كان يتكلم من قلبه، وعقله ؟

على كل حال، أجبته أنا كذلك، قائلاً :

- أنا لا أتمنى لك أن تكون من العباقرة، حتى لا تصاب به.

لم يفدني عمر بشيء، اللهم ببعض النكت عن المرض، والأطباء، كنت في غنى عنها وأنا في تلك الحال.

في الغد، ذهبنا عند الطبيب، أنا وعمر السيد، وأخوه، فأخبرنا بحقيقة الفاجعة.

# الفصل الثاني

**المنظر** : البحر.
**المكان** : شاطئ البحر.
**الزمن** : البحر.
**المشهد** : البحر.

رجل طويل القامة، نحيف، يركب سيارة أوقفها في شاطئ البحر، ينظر إلى البحر من خلال الزمن الذي مر.

كنت أرى نفسي كما وُضعْتُ، وأنا شارد الحال، وفي عَقلي تساؤلات عدة، أريد وضعها على البحر.

كنت في ذلك اليوم وأنا أقف بجانب البحر، أحاول شغل نفسي بأي شيء حتى لا أفكر في المرض، بين يدي ورقة وقلم، أحاول كتابة شرودي. لكن الفكر كان عاجزاً عن عدم التفكير في البلاء الذي ابتليت به. فترة.. أحسست بالكلمات، تأتي تباعاً. وكتبت قصيدة زجلية، كان مطلعها كالتالي :

هَـايَـجْ أنْـتَ يـا يمْ ولْعَـقلْ منَّك فـايَتْ.
كُلْ كـلْمَـة راهْ في الفَمْ بالسَّـرطَان تتْـغـاوَتْ.

أعدت القراءة، ومزقت الورقة، فشعرت بقلق وقنوط، لازلت أشعر بهما حتى الآن. رافقاني لمدة ثلاث سنين، وربما سيرافقاني إلى القبر، لكن الأمل في الله كبير.

نزلت من السيارة وأخذت أتسلى، برمْي الوُرَيْقَات التي مزقتها في الهواء، الشيء الذي جعل بعض المارة ينتبهون لصَنيعي. وأخذ هذا المرض اللعين يسيطر عن فكري.

حصرني بين أصابع كمَّاشته، وانسحقتُ في كمَّاشة الطب.

لكني شعرت بشعور المقاومة، ورفضت الانصياغ. رفضت أن أسقط في فخ الانهيار، وصمَّمْتُ على أنْ لا أنساق إلى متاهاته ثم رفضت، ورفضت، ورفضت كل شيء يدور حول المرض.

وفي ذلك الصباح، دخلت أول بار صادفته في طريقي، وسكرت حتى الثمالة. فكنت، وأنا أحس «الدوخة» تصعد الدماغ، أقول لنفسي، إنه ليس الحل، لكن على الأقل!! إنه شيء ما. فأحسست بشعور دافئ يصعدني، وأخذت أدندن لوحدي وأصفر، كما أني كتبت وأنا في البار بعض الأبيات الغزلية عن حبيب مجهول لا أعرفه، ولم أهوه إلا في خيالي.

وهكذا مرت أيامي، رافضا لكل النصائح، غير مبال بالوحش الذي يأكلني، وأنا أجهل أين مكانه الأصلي، وأين سكناه داخل جسدي. وعندما أفكر فيه، أرحل إلى عالمي الخاص، وأحتمي فيه بكل ما أوتيت من حماية جسدية وإرادة وعزيمة، وأدافع حتى لا يرحل المرض اللعين معي، ولا أترك كذلك الآخرين أن يرحلوا إلي، أو يعرضون علي آراءهم ونصائحهم، ولا أفكارهم.

فلقد كان صديقي الطبيب سامحه الله، وأخي الأصغر سامحه الله، وبعض الأصدقاء سامحهم الله، يطنون حولي كالنحل.

- إذهب إلى طبيب مختص في أمراض السرطان.
- أنت رجل شجاع واع، فلماذا تخاف من الطب ؟
- إنهم وجدوا أدوية ناجعة لهذا المرض الخبيث.

وهكذا.

أنا أعلم أنهم كانوا يقولون لي هذا من فرط حبهم لي، لكن كنت أفضل أن لا يقولوه... ذلك لأني أكره أن أغامر بنفسي في كماشة المرض والطب، كما أني أكره أن أغامر، لأنه عندما أغامر، تكون مغامرتي «كحلة زحلة» كما يقول المثل الدارجي. ولا أفكر قبل أن أجد نفسي داخل المغامرة، وفي داخلها أحاول أن أخرج منها بدون ضرر. أتذكر أنه في يوم كنا في جولة فنية بكندا، وكان اليوم يوم عطلة، فعزمني أحد الأصدقاء إلى سهرة. وقبل ذهابنا إليها، توجهنا إلى مكان في ضواحي «موريال» للعشاء في أحد المطاعم المختصة في الأكل الكندي.

كان الصديق غنياً جداً. له سيارة فخمة. وفيلا كبيرة وحديقة. فلقد كانت حرفته «شاربانتي» يبني بيوتاً من العود ويشتغل تحت يده ما يقرب من مائة عامل كندي، وله المحامون، والحراس الشخصيون و.. ويتاجر في عدة أشياء.

أقول.. ونحن في الطريق إلى المطعم، وجدنا أمامنا حادثة سير. فنزلت، وأنا سكران، وقد شدني عنصر المغامرة، وإنسان في حالة مرضي يمكن له القيام بكل شيء، شريطة أن ينسيه ما يعانيه... سكر، مخدر.. مجون إلخ.. فهو ضحية لحظات مقلقة، ولحظات فرحة. وإنه ضحية الحرمان من أشياء، كان يقوم بها، وسّعت عليه. فالحرمان يوحي للمريض بأنه صار شيئاً هامشياً. ليس مثله كمثل الناس. وإنه صار يعيش في خانة بعيدة عن ما يعيشه غيره، ولهذا فهو يتشبث ويتعلق بكل شيء، يوحي له بأنه لا يزال يعيش وسط المجتمع الإنساني حتى وإن كان حرام... إن المريض بالسرطان قد يقتل إذا قيل له اقتُل وستُشفى. إنه عراك مع الموت من أجل البقاء.

في تلك الليلة، ونحن في طريقنا إلى المطعم، رأيت على الأرض فتاة منبطحة. نزلت من السيارة، وتوجهت إليها. كان هنالك بعض السائقين،

معهم نساء ورجال، واقفون ينظرون إليها، ولا يقربونها.. فتقدمت منها، وأخذت أمسد صدرها، وتحت نهديها، وأقوم بتحريك ذراعيها، ثم طلبت من امرأة أن تتقدم، ثم قلت لها بأن تضع شفتيها على شفتي الفتاة وتنفخ، وتشد بيدها على الأنف، فنفذت السيدة ما طلبته منها... وأخذنا نقوم بذلك في نظام. والغريب في الأمر، هو أن الشابة فتحت عينيها، فنظرت إلي، وابتسمت فقلت لها :

- أتدرين يا آنسة، بأنك تعودين من بعيد ؟

أحسست بجانبي بحركة. فالفت، وإذا بي أجد رجال الإسعاف والبوليس. حينئذ انتبه عقلي لما كنت أقوم به، «فطارت السكرة، وجاءت الفكرة». ابتعد الشيطان الذي أوحى لي بذلك في بادئ الأمر، وتركني لأنهي مغامرتي لوحدي.

إن فعلي شيء خطير.

أولا، انتحال شخصية طبيب، ثانيا وهذا أصعب، تلاعبت بحياة امرأة كندية، وما أدراك ما حقوق المرأة الكندية، تلاعبت بحياتها ولو أنني أيقظتها من غفوتها. فماذا كان سيقع لو ماتت وهي بين يدي ؟

وجاءت التساؤلات :

ما هذا الذي قمت به ؟

ماذا أرد إن سألوني عن أوراقي الشخصية كطبيب ؟

وجاءت كلمة «لماذا» في عقلي، كسُحب الشتاء، وغطت صفحته، وفجأة قفزت إلى سماء عقلي الداكنة فكرة، أو بعبارة أصح كذبة، وهي مأخوذة من المثل الشعبي الذي يقول «سبّقْ العْصَا قبل الغْنَمْ».. فقلت وأنا أقوم تأسفاً لرجل من الإسعاف :

- أنا طبيب. لقد قمت بالإسعافات الأولية، عليكم أخذها الآن لأقرب مستشفى وبسرعة من فضلكم. تصبحون على خير.

رد الرجل :

- حاضر يا دكتور.

آه.. نسيت أن أعلم بأني في بلاد، لا يعرف فيها الكذب في مثل هذه المواقف، كما أنه لن يتطفل أحد على شيء لا يعنيه، حتى وإن كانت فيه سلامة الآخر إلا إذا كان ذلك من حقه.

كان صديقي، وهو يقف بجانب سيارته، وقد أحاط به حراسه، ينظر إلي مستغرباً، وأنا متوجه نحوه. لما وصلت قال ضاحكاً :

- ألْحصِيلْ ولْدْ الكَارْيَان ديمَا ولْدْ الكَارْيَان وخْلاَصْ.. أنْتَ آشْ درْتي ؟

شرحت له كل ما وقع، ثم ذهبنا إلى المطعم... وموضوع حوارنا هو الفتاة، وطبيبها المزور. وكذلك في السهرة، كان صديقي يحكي ذلك للكندين

والعرب، ويقول لهم.. إن الغريب في الأمر، هو أن الفتاة فتحت عينيها، فكان البعض يرد بأن أسهل الطرق قد تصيب قصدها، والآخر يعلق متهكماً، إن رائحة الخمر، التي كانت تفوح منه هي التي أنقذتها، وغيره يعلق بأن «تكْبيسي» لنهديْها جعل فيها حرارة من نوع آخر، وهكذا.

ـَ ياه.. لكم أتذكّر تلك الليلة الجميلة الآن.

قال لي صديقي الطبيب، وأنا جالس أمامه في مكتبه، وهو يحاول تحريك عزيمتي للذهاب عند طبيب مختص :

- إيهْ.. باطْمَا.. إنسان مثلك، فنان مبدع، خلاق.. لا أريد أن يُسمَعَ عنه، بأنه يخشى الذهاب عند الطبيب.

كلمات كان صديقي يرددها عني في تلك الأيام، وهو يعلم بأنها مجرد كلمات. وأنا كذلك أعلم بأنه يقول كما قلت لرجال الإسعاف الكنديين. لكن الظروف تختلف، والبلاد، وحتى الشخصيات. وبعد أيام رجحت كفة صديقي، فبدأت رحيلي إلى كماشة الطب.

# الفصل الثالث

**الخشبة** : قاعة انتظار.

**المشهد** : قاعة انتظار، في عيادة طبيب، بشارع أنفا في مدينة الدار البيضاء.

**اللقطة** : قاعة انتظار، في عيادة طبيب، بشارع أنفا في مدينة الدار البيضاء.

يوجد بها مرضى، وسطهم صديق رحمه الله، كان هو كذلك مصاب بالمرض يدعى «حميد كليفت».

شاب توفى، وهو لا يتجاوزني سناً. «الأعمار بيد الله».

قضى ما يقرب من ستة أشهر مريضاً، ثم قضى نحبه.

ولي مع حميد، رحمه الله، ذكريات جميلة وطيبة.

سهر، ونشاط، وسماع موسيقى «جَاكْ بْريلْ» وأغاني «نَاسْ الغيوَانْ».

كان حنوناً، هادئ الطباع، يحب الآخَر. ويعامل بالتي هَي أحسن. دهشت لما وجدته في عيادة ذلك الطبيب. وجدته قد تغير وجهه. وقامته التي كانت قوية أصبحت نحيلة وصوته ضعيفاً، فكنت أسأله، وأنا شغوف لمعرفة ما جرى له، بينما هو يرد، ويظهر من خلال أجوبته بأن يريد أن لا أسأله، فسكت.

كنت في أول الجري وراء الشفاء.. وكان هو قد ملَّ ذلك. أنا الآن أعلم بما كان يجري في خاطره خلال تلك اللحظة. لقد كان لا يريد الكلام عن المرض.

نادت الممرضة حميد إلى غرفة أخرى. فقام مسرعاً من غير أن يودعني.

بعدهُ أدخلتني الممرضة عند الطبيب.. وبعد نقاش، وشرح، قال لي بأنه علي إحضار صورة إشعاعية لصدري. فسألته عن المرض، هل هو خطير. وهل يعذب. وهل. وهل. وهل..

كنت كالطفل، ما يرد على سؤال حتى أبادره بغيره. وخرجت من خلال حواره بتصور كأنّ شيئاً ما لا يروقني، لأنه كان نفوراً نفسانياً أكثر ما هو مادي ملموس.

قال لي :

- يجب أن تكون لك قوة خارقة وعزيمة صلبة، وإرادة قوية، وبها قد تتغلب على هذا المرض..

ثم أضاف قائلا، بعد أن لاحظ عدم اقتناعي :

- أنظر صديقنا حميد، فهو الآن ينهار، لأنه خائف. إني أوصيه بعدم الخوف، لكنه يخاف من كل شيء. واسترسل في شروحاته وتعليقاته.

قلت في خاطري : «مَاحَاسْ بالمزوَدْ، غيرْ المضرُوبْ بيهْ أدّكْتُور».

لما أرجع الطبيب بصره إلي، وجدني أبكي. فقام مغتاضاً، وقال لي بأنه يرفض أن يداوي إنساناً ضعيف الإرادة مثلي، وأنه لازلنا لم نشخص المرض بعد.. و.. وو.. وعدة واوات، وتسويفات وعنعنات، وضرب أمثلة.

أجبته، وأنا أجفف دموعي :

- يادكتور.. إنها ليست دموع خوف.. بل هي دموع تفكير في الآتي وفي ما يخبئه القدر لي.

- لا شيء، توكل على الله، وأحضر ما قلته لك. موعدنا غداً في نفس الوقت.

مدَّ يده باردةً، قويّة. ومددت يداً رخوة لا إحساس فيها. فتصافحنا، وخرجت من عنده، وكأني تجاوزت المائة سنة.

حكى لي السي محمد الدرهم، من مجموعة «جيل جيلالة»، عن صديق مشترك لنا، يدعى «مولاي الطاهر، تخامج» رحمه الله. كان إنساناً مرحاً، صاحب نكتة، وله عدة مواقف مضحكة، كنا نحكيها لبعضنا، ولا زلنا، كلما تذكرناه.

قال الدرهم، بأن «مولاي الطاهر» أصيب بوعكة صحية، وكان السبب فيها هو شربه للخمر بكثرة، فلقد كان مدمناً. وأخذه بعض أصدقائه عند الطبيب، ولما انتهت الزيارة، سأله الأصدقاء، عم قاله له الطبيب فرد.. لقد قال لي بأن كل شيء على ما يرام.. فزاد الأصدقاء طالبين منه شرح ذلك بالتدقيق. فأجابهم. ياأصدقائي، إنه طبيب ذكي، لقد كشف علي، وتناقش معي، وفي الأخير قال لي يمكن لك أن تذهب إلى بيتك، وتشرب الخمر إلى أن تموت.

قمت بما طلبه مني الطبيب، وفي الموعد كنت أنا وصديقي أحمد السنوسي وأخي الأصغر.. الثنائي الذي رافقني طيلة المحنة، ولا زال.

دخلت أنا وأحمد إلى مكتبه.

كان أحمد على معرفة بالطبيب، وببعض أصدقائه وكذلك على معرفة بحميد كليفت. فتكلمنا في عدة أشياء كان محورها، تشجيعي على تقبل مرضي، وأن الأقدار بيد الله سبحانه وتعالى. ثم فحص الطبيب الصور، والتفت إلي مبتسما، وقال :

- أبشر ياسيدي، إنه بالفعل هناك وجود «تيمور» في الجانب الأعلى من رئتك اليسرى. لكنها ليست خطيرة. إن دائرتها لا تتعدى 7 , 0 سنتمتر. وبدواء «الشِّيمْيُو» قد تزول إن شاء الله. لكن الدواء باهض الثمن شيء ما.

- سأله أحمد عن ثمنه، فأخرج هو آلة حساب، وبدأ في جمع وطرح، ثم قال الحاصل :

- ما يقرب من سبعة آلاف درهم.. لكل حصة. إنه دواء باهض الثمن كما قلت، لكن دواء كيماوي، لا يوجد بالمغرب، قليل في السوق.. وإنه دواء

يصنع من مزيج سم الأفاعي مع مواد أخرى.. و.. وإني سأخصم هذا من هذا، وذاك من ذاك وسيكلفكم التداوي ما قدره هذا.

قال أحمد السنوسي :

- ما علينا، سنتدبر المال. نتصل بناس. أو نقيم حفلات فنية. فالمهم هو أن يتداوى، ولا تهمنا الأشياء المادية. إن له الحقَّ كفنّان في هذا البلد بأن يطلب المعونة من الدولة، ولمَ لا؟ إنه أسدى لهذا الوطن خدمات فنية ورفع راية البلد في مهرجانات عالمية، فعلى الأقل أن يساعده الوطن وهو في محنته هاته.

كان الطبيب يوافق برأسه وقد ظهر عليه الخوف، لأن أحمد كان يسرد على مسامعه خطاباً سياسياً. ربما خاف المسكين أن يسمع أحد فتُغلقَ عيادته، خصوصاً وأن ذلك كان بعد خروجنا من مكتبه، ووقوفنا في البهو، بحيث أن كل المرضى الموجودين بقاعة الانتظار كانوا يسمعون كلام أحمد.

تقدم مريض منا، سلَّمَ على الطبيب، وعلينا. رجل أشرف على الستين.

قال الدكتور :

- أأخذت حصتك من الشيميو ؟

أجاب الشخص بالنفي.

رأيت في يده مشروبا للسعال، فسألت :

- أهذا يصلح لدواء المرض ؟

قال الشخص :

- لا يا سي باطما. إنه للسعال فقط. فأنا في المستقبل ربما سأسعل. أطراف رئتي متقاطعة، أو ربما سأسعل مرة وتكون فيها نهايتي.

أجاب الطبيب مستنكراً :

- لأنك لازلت تدخن، ياسي بوشعيب. مريض وصل إلى المرحلة التي أنت فيها، يجب عليه الامتناع عن التدخين. إنك في «الكَاطرِيَامْ سْطاد» تقريباً.

قال أخي، وكأنه عثر على شيء :

- العربي لا يزال هو كذلك يدخّن.

- ألسي العربي حالة أخرى، فـ «لاَ تيمُورْ» صغيرة، وليست خطيرة، ربما في المستقبل قد يكون من الواجب عليه الامتناع عن التدخين.

قال هذا ثم وضع يده على كتف أحمد، والآخر على كتفي، وقادنا بلباقة وهدوء إلى الباب، ضارباً لنا موعداً آخر.

كنت من هواة التدخين.

تدخين كل شيء.

السجائر العادية. الغير عادية. الكيف. وكنت، وأنا لا أزال صغيراً، عندما أصاب بالزكام، تعطيني أمي عشبة «فليُّو» في «كاغط» السكر، بعد أن تلفه كسجارة وتولعها، وتأمرني أن أدخن، وكان هذا دواء الزكام، لكنه كان بداية العادة.

تهلل وجهي وأنا أسمع موافقة الطبيب على التدخين، فأولعت سيجارة عادية. ياه.

ما أحلى القيام من النوم، ثم تدخين سيجارة بعد فطور لذيذ. أو قبل مغادرة الفراش بعد ليلة صاخبة، وبجانبك فتاة عارية، ثم تولع سيجارة، وتنفث دخانها، وتنظر إلى الفجرية، فتقول لك هي كذلك.. أولع لي سيجارة، فتنفذ الأمر، ثم نقوم إلى المطبخ، تسحق عقب السيجارة، لأن المرمدة تركتها في بيت النوم مملوءة بأعقاب السجائر. وبعد سحق العقب تولع سيجارة أخرى، وهكذا إلى أن تدخن خمسة سجائر، فترى العالم لا غشاوة عليه. بعد هذا تشرب قهوتك، وتدخن السيجارة السادسة، لتشعر بالجوع. والأحلى من هذا لذة، هو أن تقوم، وتدخن الخمس سجائر، ثم تذهب إلى بائع الخمور، وتشتري ستة قنينات جعة، ثم تدخل، أو تكتب، إن كنت من عشاق هلوسة الكتابة، أو تذهب إلى عملك إن كنت من هواة «الكرْفي». وقد لاقيت صديقين في جسمك، هما التدخين والخمر.

عَجبَكَ قولي هذا، «ياك» ؟

أنا لا.

فهذا الشوق للخمر وهاته اللهفة، والعربدة، والمجون، والإدمان، وكل شيء ماثل أمام نار اللامبالاة. هم الذين دفعوني إلى المرض، قدماً قدماً... شيئاً فشيئاً.. مرحلة بمرحلة، إلى أن صرت في وضعي الأليم.

أنا لا أقدم نصيحة. بل أقول وأحكي واقعاً.

العذاب.. الألم.. البكاء..

على كل حال «كل شاة تعلق من كراعها»، وفي هذا الزمن صار الإنسان يردد «رَاسي يَا رَاسي». ولم يبق أحد مغفلاً مثلي، ولا بليداً. لقد صار الكل «حرايمي مَن أفعالوَ وعايق وفايق» على كل حال. «وكلها وْحَالُو، وأحوال الناس شَلاَّ». كما قال الصديق «الفنان المحجوب الراجي». لأعُدْ إلى ما كنت فيه حول التدخين. إن التدخين هو أعدى عدو البشر. فوالله لو وجدتُ ذلك الذي اكتشف العشبة المسمومة «طَابَا» وكان سبباً في كل ما يقع الآن من جرائها، لقتلتُه.

سمح لي الطبيب بالتدخين، وراقني ذلك كما قلت سابقاً، فشكرته وخرجت، وأنا أولع السيجارة الأربعين، وآخذ النفس الأربعمائة. وفي الليل. كنت عند أحمد السنوسي، نتناقش حول ذهابنا عند ذلك الطبيب.

قال أحد الأصدقاء، كان يجلس معنا :

- أتعرف ذلك الطبيب ؟

- ليس معرفة جيدة.

- إنه يلعب لبُّوكير. إنه يقامر، وفي احتياج دائم للمال. أي أنه في احتياج للزبناء، ولا يهمه ماذا يأتي من بعد، فكيف تثق فيه ؟

رَدّيت :

- هذه حياته. أنا لا يهمني إلا عمله.

قال الصديق :

- لماذا لا تذهب إلى الرباط، فهناك يوجد مستشفى محمد بن عبد الله، فيه بروفيسورات، وأطباء متخصصون في هذا المرض. إنه مستشفى على شكل كلية طبية. ففيه الطلبة والمتدربون، والآلات التي تصلح، كآلة التداوي بالأشعة. إنهم هناك يعرفون ما يقومون به. وبالمناسبة، تزور الكاتب محمد خير الدين، فأنت تعلم بأنه كذلك مصاب بنفس المرض. إنه هناك. ولقد اعتنوا به عناية خاصة.

وأطال الصديق في شرحه، إلى أن اتفقنا على أن نذهب في الغد أنا وأحمد، وأخي الصغير.

قال أحمد :

- لنذهب، وهناك نستطلع الأمور ونزور كما قلت محماد العصفور. كان الكاتب محماد خير الدين رحمه الله صديقنا جميعاً. وكنا نلقبه بالعصفور، لأنه كان يحب العصافير، ويحاول دائما فهم ما يتردد بينها، إن سمعها، ويشرح لنا ما تريد قوله.

أتذكر الآن ليالي طريفة، وعنيفة، وأدبية وشاعرية، مع محماد العصفور. في بيت أو في الصالون الأدبي، الذي كان في ملك أحمد السنوسي في «ممر سوميكا» بشارع محمد الخامس، فيما رأى هذا البيت من أوجه ثقافية وفنية.

وفي ليلة من ليالي الشتاء، جاء إلى زيارة أحمد السنوسي أستاذ جامعي، وكنت موجوداً أنذاك. جاء الأستاذ وأظن بأن اسمه كان الأستاذ صدوق - وكان برفقته رجل قصير القامة، شعر رأسه ناعم، يشبه رجلا صينياً في كل مقومات جسمه، جسمه ووجهه، وكل شيء فيه يعج بالذكاء والحيوية، بل بالعبقرية.. لكنه عنيف التصرف، والرد في الجواب، والحركات والكلام.

لما قدم لنا الأستاذ، قال هو بعد تقديمه، وبفرنسيته التي لا تضاهيها فرنسية علماء الأكاديمية الفرنسية.

Mon nom c'est le tueur des mots

في تلك الليلة تمتعنا به، وهو يقرأ لنا «لا لباطْرُوس» لشارل بودلير. أو شارل كما كان يدعوه هو.

وزاد الأستاذ قائلا في تقديمه لنا، بأنه كان منفياً في فرنسا، وعاد للوطن. آه..

لقد كان محماد جميلاً. وديعاً. ذا قلب كبير. لكن الكثير من أصدقائه لم يروا هذا، واكتفوا برؤية عنفه الذي جهل الكل سببه، حتى المقربون منه.

كان رحمه الله يحب قراءة القرآن. وخصوصاً سورة الرحمن.

ويحب كذلك التراث الشعبي البربري منه والبدوي. ويكره الظلم، متلافياً حب المال، وما تأتي به الدنيا. يعيش حياة التقشف بالرغم من مظهره.

كان محماد، في تلك الليلة، يردد بين الفينة والأخرى جملة لم أفهم لماذا كان يقولها طيلة عشرتي له :

- سأطلق النار على الكل.. سأقتل الكل.

ثم ينظر إلينا، ويدندن، جاعلاً من يده عوداً ومن الأخرى «صدعة» ثم يبتهج ويقول :

- لا.. سأقتُل الكل Sauf vous mes fils

- ربما كلمة «فيس» التي كتبت فيها غلط. فأنا أجهل الكتابة بالفرنسية.

قضينا الليلة، في سمر، ثم رافقنا الصديقين إلى محطة الطاكسيات، بينما ضحكنا يجلجل في فضاء الدار البيضاء النائمة.

آه.

ما أجملك عندما تعطين لرموشك راحة النوم يا بيْضَائي. عندما تزيلين، عْويناتَك بعد قراءة نهارك، وأنت متمددة على فراش الحوادث، والأحداث اليَومية. ثم تمرين بأصبعيك على عينين، بعد هذا ترتخين على الفراش، وتنامين، تاركة للساهرين ضوءاً خافتاً، لأن لا تتعسر أقدامهم في حفر الزمن المؤلم.

كنا نمشي في تلك الليلة، وعندما يصيح محماد صيحة من صيحاته العنيفة، يقول له الأستاذ صدوق مداعباً :

- وَاسكت الشَّلْحْ، دَابَا تشدْنا لارَافْ.

- سأطلق النار على الكلّ.. سأقتل الكل.

ومن تلك الليلة، ربطت بيننا صداقة متينة، إلى أن مات رحمه الله.

والحقيقة هي أنه كان صديقاً لأحمد السنوسي، أكثر من كل واحد. وهنا، بالرغم مما يقال، لولا السنوسي لضاع محماد وتشرّد في المغرب... فحتى أهله تخلوا عنه نظراً لسمعته المغلوط فيها، والتي كانوا ينعتونه بها، ألا وهي العنف.

«محمد خير الدين، اللَّهُمّا تَقْرا كْتَابَاتُو، وتبْقَى بعيدْ عْليهْ».

هذا ما كان يتردد بين أصدقائه، وأهله.

في صباح ذلك اليوم، والسيارة متوجهة إلى مدينة الرباط، اشتريت علبة سجائر.

كان أخي، والسنوسي ينظران إلي، وقد استبد بهما القلب. فاشتريتها، ثم إرضاء لخاطرهما أخرجت منها عدة سجائر، ورميت الباقي في بركة مائية، فقلت، بعد هذه العلبة سأترك التدخين، فوجداها فرصة للكلام، وانْسَابَا في دروس النصح :

- هاد الشّي اللّي كنقُولُوليكْ غادِي إنفعَكْ.

هذاَ في صَالْحكْ.
احنَا مَالْنَا.. آش بْغينَا ليكْ غيرْ الخير.
كلمات، كنت أعلم أنها نابعة من قلبين يُحباني.
وصلنا إلى العاصمة، ثم إلى المستشفى.
كان أحمد السنوسي يعرف البروفسور الكَداري، المدير العام للمستشفى، ويعرف كذلك بعض الأطباء المكلفين بـ «محماد خير الدين» لأنه هو الذي جاء به إلى المستشفى، ورافقه يوم دخوله إليه. وكان سبب محماد في إصابته بالمرض رحمه الله، ضرس، مجرد مرض ضرس بسيط في فمه، لكن محماد، نظراً لعدم مبالاته لم يداوه، ومع المدة انتفخ، وتسبب له في سرطان الشدق. ومنه إلى المخ. وبه مات رحمه الله.
أقول.. دخلنا إلى المستشفى، ثم توجهنا رأساً إلى زيارة محماد، فوجدناه في غرفته يكتب بيده اليمنى بينما اليسرى فيها أنبوب «الشّيميو» البلاستيكي، مغروز في ذراعه بشوكة. دخلنا ومعنا الطبيب الذي كان مكلفاً بمداواته.
قال محمد بفرنسيته المعهودة ما معناه :
- أهلاً يا أبنائي.. تأخرتم عني.
رد أحمد :
- لا.. لم نتأخر.. بل كنت مع باطما.. فهو سيكون معك جارك.
- هنا لا جيران لي.. بل لي أصدقاء، عصافير في النهار، فقط بالليل، تأتي للبحث عني تلك العصفير، عندما لا تجد ما يؤكل في مطبخ هذا المستشفى.
ضحكنا، ثم قلت له :
- وهل أنا لست صديقك؟
- لأجل ذلك قلت بأنك لست جاري.
إني الآن، أتذكر كل كلمة.
أرى كل حركة كان يقوم بها.
تتحرك الصور والحركات في عقلي، بشكل واضح، وأسمع الكلمات يأتيني بها الماضي، والذكريات مساعدة لي على الكتابة.. ونسخ كل شيء يصعد على صفحة فكري، وبسرعة لأن لا يضيع ذلك.
آه.. ما أروعَ العقلَ.. وما أروعَ المخيّلة.
خرجنا من عند محماد. وتركناه للمصير الذي يعانيه كل مريض عندما يغادره أهله وأصدقائه ويبقى لوحده، ثم ذهبنا إلى مكتب لبروفسور المدير، الذي وافق على دخولي إلى المستشفى لإجراء فحوصات طبية، شريطة أن نقوم بإجراءات واتصالات لتحمل أعباء أخرى.

# الفصل الرابع

**الزمن** : صباح من أيام الله.
**المكان** : بهو المستشفى.
**الأشخاص** : أنا، أحمد السنوسي، أخي، سكرتيرة.
قالت، لما أخبرناها بأنه معنا مريض.. من هو فيكم؟
لم تعرف المريضَ وسطنا، لأنه لم يكن يظهر علي ذلك.. وكنت الطويل القامة، العريض الكتفين، وعليَّ سمنة لا بأس بها.. فاختلط الأمر على الفتاة، وأشارت لنا إلى مكتب الحاج الكَداري، بعد أن سجلت اسمي.
كان المدير يحتسي قهوته الصباحية أو شايه، لا أدري الآن. الذي كان يهمني، وأنا أنظر إليه، هو شوقي لتلك الشمالة الباقية في قعر الكأس، والتي كان يمصها بين الحين والآخر... وكنت كذلك في شوق للتدخين، وللقهوة أو الشاي، أو أي شيء، يأخذه المدمن على السجائر مع سيجارته، لأنه كان من المفروض علي في ذلك الصباح أن أقوم بفحوصات، صور للصدر. فأخذوا لي صورة بالأشعة، زكّت ما قالته الطبيب البيضاوي. ثم فحصوني، وسألوني عن إحساساتي، وأكلي، وشربي، وبعد ذلك اتفقوا على إجراء عملية لأخذ عينة من «التيمور» العالق في أعلى الرئة اليسرى بواسطة «السكانير».
- أتنفّسْ.. أقطعْ النّفْس.. أتنفّسْ.. أقطعْ النّفْس.
كلمتان، كان يرددهما بوق «السكانير» مسجلتان في شريط، ويترددان في نظام آلي، بصوت بارد، لا دفء فيه، فاقت برودته برودة تلك الغرفة، التي أدخلوني إليها، بعد نزع ملابسي، ثم وضعوني فوق طاولة حديدية، طويلة.. وأدخلوني «السكانير».
- أتنفّسْ.. أقطعْ النّفْس.. أتنفّسْ.. أقطعْ النّفْس..
وجدتني مجبوراً على تنفيذ ذلك الأمر، بالرغم مني. ثم جاؤوا بإبرة طويلة في قدر قلم.. ثم وضعوا البنج على الجلد تحت الكتف اليسرى.. أي فوق المكان الذي تحته «لاتيمور» وغرزو الإبرة، بعد ذلك ذهبوا إلى «السكانير» بينهما هو يردد في أدناي جملته المملة.
وعادوا مرة أخرى لتصوير الإبرة، إلى المحل الموجودة فيه «لاتيمور»، لأنهم لاحظوا بأنها ليست في اتجاهها.
كان الألم شديداً، فبعد أن تجاوزت الإبرة المكان المخدر بدأت أشعر بها تنغرز في لحمي.

كان دعائي في تلك الفترة هو :

- اللهم يا قوي.. قوّني بجَاهْ اسمك القوي.

صوبُوا الإبرة، وزفروها، فأحسست بالألم يزداد.

قضيت ما يقرب من العشرين دقيقة في هذا العذاب. فأخذوا العينة، وهربت من «السكانير» وصوته الملعون. فغادرت المستشفى وأنا لا أريد قطع النفس.

في إحدى حفلات ناس الغيوان... كنت أغني موال «من المحال» :

مَنْ المُحال أقلبي باشْ تنْسَاهْ
مَنْ المُحال أقلبي وانْتَ تَهْواهْ
يَاكْ أقلبي جيتْ أغْريبْ
يَاكْ أقلبي مَنْ بْلاد ابْعيدَةْ
يَاكْ أقلبي هَجَرْتْ لوطَانْ
يَاكْ أقلبي وبْلاَدي لْعزيزَةْ
الريحْ والسْحابْ ارْشَاتْ
الغيـم ظلّـمْ عليّـا
لَحْبَاب كَاعْ كْفَاتْ
بْقيتْ افْريدْ، والعَمْـدَةْ عليَّا.

وفي كلمتيَ الريح والسحاب.. كان علي - بالنسبة للحن - أن أطيل فيها، وأن لا أتنفس.. إلا بعد الجملة الموسيقية.. فأحسست برئتيَّ، يلتقي باطنهما، أو تجويفهما. وشعرت كأن تياراً كهربائياً مرّ بجسمي. كما أنه عندما أردت إرجاع التنفس لم أقدر، وبعد جهد جهيد تنفّسْت.. لما أنهينا العرض تحسست أنفي فوجدت شيئاً من الدم عالقاً بالشعيرات الموجودة بداخله.

آه.. إنّ صدري الآن يعاني، لأني مصاب بقلة التنفس. ولقد عشت طيلة حياتي أخاف الاختناق، وأتذكر بأني كتبت نصّاً قصصياً عن الاختناق ونشرته في جريدة «العلم».

نعم.

عشت طيلة حياتي لما أرى السمكة، وقد أخرجها الصياد من البحر، فتموت مختنقة أقول في نفسي بأنها ميتة صعبة.

وعندما أرى في أي فيلم، أو في أي شيء، حاجات توحي بالاختناق، أتغاضى عن ذلك المشهد وأنتهي بالنظر في حاجات أخرى.

ما أصعبَ الموت بالاختناق.

رَبّ خُذْني بما شئت. لكن رحماك، أبْعدْ عنّي الاختناق.

رَبّ أنا كتبت توسلي إليك، ليدوم طيلة الحياة، مكتوباً مطبوعاً ولا شيء يقلقه.

رَبِّ لبِّ طلبي يا أرحم الراحمين..
رَبِّ إني أعلم بأن الأعـمـال بيـدك. وأعـلم بأن المعـجـزات لـك. وأعلم كذلك بأني عبد ملحاح في طلبك. وأنك تحب العبد الملحاح فهلاً سهلت أمري، سبحانك، لا إلاه إلا أنت. فتوفّني مسلماً، واحشرني مع الأبرار.

❑❑❑

ذهبت في تلك الليلة إلى البيت، وأنا كلي ألم.
وجدت أمي في مكانها المعتاد، أي جلوسها في بهو البيت في مواجهة الباب الرئيسي لالتقاط هبات البرد، فهي كانت رحمها الله مصابة بالربو، ومن جملة مصائب الربو هو قلة التنفس.
تعشيتُ، ونمت، بعد أن حكيت لها ما جرى لي. وفي نصف الليل.. أزعج نومي ألم شعرت به في المكان الذي انغرزت فيه الشوكة، فقمت، واشتد صياحي. كان الأهل عاجزين عن صنع أي شيء.. قضيت الليل كله أتألم إلى أن أشرقت الشمس. ثم حاولت النوم، فنمتُ من جراء التعب والسهر.
بعد أيام، رجعت إلى المستشفى، وهناك قيل لي بأني بالفعل مصاب بالمرض الخبيث، وأن العينة قد وجد فيها المرض، وأنه علي أن أدخل المستشفى للتداوي «بالشيميو» والأشعة.

يا عَـالَمْ لعْلُو.. يا الرفَعْ شغْلُو.. يا باسَطْ لْبسيطَة
يَا القَـادَرْ بقَـدْرُو.. يا البـالغ أمْـرُو.. لكلّ عَـيطَةْ
جيتْ نرجَاكْ – وما نْرجَى سوَاكْ.. لا تصيبْني بتفْريطَة
لدمـوعْ ثملاني.. لحـزان ضَـارْبَاني.. طبَّـالْ وغـيْطَة
لهموم ساقْيَاني.. وطمايع كيْسَاني.. شرْط وشَريطة
كلَمْـواج هازّاني.. لفْضَـا الفُـوقَـاني.. وْهَا نتـرطَّى
تْلَفْ لي غيوَاني.. ولا حدْ ألْقاني..َفوجْهي شحْطَة
وشْحالْ قَدْ انْعاني.. السّمْ سْكَنْ كيَاني.. مطلوقْ بخطَى
هَا احْنا جْـمـاعَـة.. كيفْ الربَاعَة.. فْبيتْ اطْويلْ
لابْسين الضـرّاعة.. مْعَوْلينْ للكَاعة.. نسَقَل سْقَيلْ
دمُـوعْنَا تجْـري.. مَنْ هَدي لهَـدي.. فْبيت اطْوَيلْ
فبـيوتْ صُـغَـارْ.. ليلْ ونْهَـارْ.. نْتسَنَاوْ الرّحـيلْ
مْصَافّينْ على طُولْ.. والصّمتْ مرسُولْ.. وكْلاَمْنَا ثْقيلْ
نْتسنّاوْ رحْمَتك.. وبَعْثْ فرجْتَكْ.. عْليهمْ التّعْويلْ
غـيثْنَا يا غيّـاتْ.. بْجَاه المْبعَـاثْ.. محَـمّد لرسَيلْ
رّا الجَنوِي وْصَلْ.. والعبْد حَصَلْ.. وهَا العَرْبي اعزْيلْ

❑❑❑

كان أول يوم دخلت فيه إلى المستشفى يوم 1993/11/4. رقم الملف M.933317. وفي نفس اليوم بدأت «الشيميو». سائل أبيض كالماء. يضعونه في زجاجات يعلقونها بجانب المريض، ثم يفرزون أنبوباً بلاستيكياً مشدوداً إليها بشوكة في عرق ذراع المريض، ثم يغطى ذلك السائل، وهو في تلك الزجاجات بورق «السلفان»..

والدواء، أصله، كما قيل لي، من سُمْ الأفاعي، يخلط بمواد كيماوية يعطي مزجها دواء «الشيميو».

أتذكر ليلة، وأنا بفرنسا في السّان جيرْمَان، وكانت معي صبية جميلة، وكان كذلك المطرب جورج وصّوف، وهَو لم يتجاوز الرابعة عشرة بعد، وأنا على يقين بأنه لا يتذكر هاته الذكرى، لأنه لم نلتق بعدها.. وكان هذا اللقاء في فندق كلاريدج شان إليزي.. المهم هو أن الفتاة، بالرغم من أنه قيل بأنها تشردت، تذكر هذا خصوصاً إن وصلتها أوراقي هاته.. فهي كانت فتاة كريمة، تحب الناس، وتعامل الآخر بحسن نية، وطيبوبة خاطر وكرم.

وفي ليلة، كان معنا لبناني يبيع المخدرات القوية.. فسألته هل عنده كوكايين. فقال لي بأن عنده أحسن من ذلك، وهو مزيج من مخدرات أخرى أحسن من الكوكايين.

نزلنا إلى غرفة أسفل، حيث توجد مراحيض المقهى والتلفون. مزج لي خليطاً. حبوباً ملونة، ثم طبخها وسط ملعقة.. وأعطاني الخليط.. شربته.. أما الذي وقع هو أن اللبناني صعد وأنا سقطت في مكاني مغمى علي. ولولا أن الفتاة تذكرتني لكنت قد سبقت موعد عذابي هذا بعدة سنين وارتحت منه.

إن مزج المواد الكيماوية خطير، ولو أنه بين أيدي الأطباء ومزيج من سم الأفاعي كالشيميو أخطر. والشفاء على الله.

والذي جرى يوم دخولي، هو أنه كنت لا أزال لم أحصل على المساعدة الملكية.. والتي هي تحمل المشاكل المادية. فجعلوني في الطابق الثالث، في جناح توجد به عدة بيوت، والكثير من المرضى.. بعضهم على الأرض والبعض فوق الأسرة، بيوت تحمل عدداً كثيراً من البشر المريض.

أعطوني بيتاً صغيراً، كنت فيه لوحدي، وذلك لأنهم كانوا يعلمون بأن الزيارات ستكون كثيرة، وأن الذين سيزورونني فنانة وكتاب، وإذاعيون.

وكان أول من زارني هو الممثل المقتدر، الأخ المحجوب الراجي. تكلمنا، وحكى لي عدة مستملحات، وتناقشنا حول مرض المرحوم السي محمد الحياني الذي كان لايزال على قيد الحياة في ذلك الوقت، وأنه ذهب لفرنسا قصد العلاج على حساب صاحب الجلالة أيده الله. وتذاكرنا كذلك على الفرق بين فرنسا والمغرب من ناحية العلاج، فوجدنا بأن الفرق الوحيد هو العناية بالمريض، هذا إذا لم يقع المريض المبعوث من طرف المغرب إلى

«فيل جويف» - وهذا اسم المستشفى الفرنسي - بأيدي أطباء وممرضين عنصريين.

وحكى لي الممثل السي محمد رشدي، لما زارني، حكاية تظهر عنصرية بعض الفرنسيين بالرغم مما يدعون من أنهم ممرضون، وأن همهم هو مراعاة المرضى.. والواقعة وقعت للممثل الأستاذ العربي الدغمي رحمه الله، وكان مصاباً بمرض السكري. وكل ما يأتي من مصائب يتلو هذا المرض.

قال رشدي بأن العربي الدغمي رحمه الله سقط، من فوق الفراش، وظل ينادي من ينقذه، ويعيده إلى مكانه، ولم يجد ملبيا لصوته، وبقى يتعارك إلى أن قام، وبعد جهد رجع إلى الفراش بينما الممرضون يمرون من جانبه، ولا يعيرونه التفاتاً. وكان كلما صاح من فرط الألم يقولون له أنت تمثل علينا بأنك تحس بالألم.

كما كانوا في الصباح يفرقون باقات الورد على كل الغرف، إلا غرفته.. وإنه.. وإنه.. وإنه..

أشياء عنصرية لا تبت للإنسانية بأية صلة ويندى لها الجبين ولا يشعر المرء إلا بالاحتقار للذين يقومون بها.

ودعني رشدي في ذلك اليوم، وتركني في حيرة السؤال :

من الذي يخاف من هذا المرض، أنحن أم الذين يزورونا ؟

لقد زارني، بعد المحجوب ورشدي، عدة أصدقاء، كلهم يتمنون لي الشفاء العاجل، والرجوع إلى الميدان. لكني كنت ألاحظ دائما في أعينهم حالات الخوف، ليس علي، بل مما أعانيه، فهم معارفي، ويعرفون كيف كنت وكيف صرت.. نحيفاً، قلقاً، عصبياً.. وأكثر من هذا، إنه لا يمكن لأي مخلوق سماع كلمة السرطان ويهدأ...

فهو يقول الله يحفظنا ويحفظكم مريض بالسرطان. وزارني كذلك الكاتب إدريس الخوري وزوجته، والأخ بناني رئيس منظمة حقوق الإنسان، والإذاعية الأخت سميرة، وكذلك الإذاعية اسمهان عمور وزوجها ومذيعة التلفزيون نسيمة الحر. وآخرون نسيت أسماءهم، وأتمنى أن لا يغضبوا مني..

وأنا إن ذكرت هذه الأسماء، فذلك لأشكرهم على التفكير في.. وفي مصيري المحزن. أصدقاء كانوا يزورونني ويحاولون جهدهم الإسراع في الزيارة، وأراهم كأنهم يهربون، لكن لم يكونوا يهربون مني، وإنما يهربون من جحيم لك الجناح ومما يقع فيه.

ومن جملة ما عشت في ذلك الجناح، هو أنه في صباح، لما استيقظت، سمعت بكاء في الغرفة التي تقع بجانب غرفتي، ولما سألت قيل لي بأن أما قتلت ابنها. كيف ذلك؟ ذلك أنه قيل لها، وهذا من شروط التداوي، بأن عليها أن ترغمه على الأكل، لأن مخلفات دواء «الشيميو» والقيء يضران في عدة

أماكن من الجسم، وبالأخص في المعدة، والمصارين، كما يسبب الضغط، فهو دواء لا يقتل الخلية المصابة فقط، بل يقتل كل ما يصادفه من الخلايا الجسمانية.. ولهذا وجب أخذ عدة احتياطات، ومن جملتها الأكل، يجب على المريض أن يأكل بكثرة، هذا مع العلم بأن الدواء يحرم المريض من أول شيء هو الشهية.

لم تكن المرأة تتوفر، وهي الفقيرة، إلا على براد قهوة، وخبز حافي، وكان الإبن مصاباً بسرطان البلعوم، فأخذت تضع الخبز في فمه بكثرة وتمزجه بالقهوة، فمات الإبن مختنقا.

سمعتها تقول باكية :

- الله أمّيمْتي، قْتَلْتْ اوليدي.

وسمعت أحد المرضين يرد :

- كلنا ليهَا.

مرَّ عليَ أسبوع في ذلك الجناح، عانيت فيه المر..

تصوروا جناحاً نصف دائري، طويلاً، مصبوغاً بالأصفر والأزرق، يحمل بين ضلوعه أكثر من مائة مريض، كلها تبيت وتظل تتقيأ، وتئن، وتصيح من جراء الألم. وتضحك كذلك من جراء احتقار الحياة لها، واحتقار المصير.

جناح طويل، وسخن.. في حرارة غير عادية، حرارة الأنفس التي تبعت من ذلك الجناح، تصادفها عندما تفتح أي باب، فتشعر بالغثيان.

إنه مصير لا نعلم إلى أين سيأخذنا، للموت أم للحياة، فتتعلق بالرجاء للمرجو سبحانه تعالى، أن يمنحنا الراحة الأبدية.

«أعْ... أعْ... أعْ...»

هذا ما أسمعه ليلاً ونهاراً..

وكذلك ما أسمعه أنا لجيراني في الغرف الأخرى.

إنه كحوار متبادل بيننا، وهو رمز بأن هناك أحداً في غرفة لا يزال يقاوم.

وفي يوم جاءت الممثلة الصديقة ثريا جبران، فراعها ما شاهدت، وأخذت تحتج، وهي غاضبة، فقالت لي بأنها ستبلغ وجودي في تلك الحالة إلى الوزير المكلف بالشؤون الثقافية.. فقلت لها بأنه لا شك، إن كان يطالع سيادته الجرائد، قد يجد حكايتي في كل جريدة، لأن الصحف قد ساعدتني كثيرا، ففي كل صحيفة، كيفما كانت منتمية أو حرة، تجد تقريبا كل يوم مقالاً، مفاده معاناة العربي باطما.

وذهبت ثريا، لكن الذي وقع هو أنه في نفس اليوم اتصل بي لبروفسور الكَداري، وقال لي بأن كل مصاريف العلاج قد تحملها القصر الملكي، وأنني سأنتقل من ذلك المكان إلى مكان آخر هادئ.. جاء الأمر المولوي الشريف في حينه، لأني كنت سأغادر المستشفى.. فلا يمكن لأي كان أن يصبر على ما يقع له في ذلك الجناح الموجود بالطابق الثالث.. إن الناس يعانون في ذلك الطابق أشد العناء.

أستغرب الآن، لعدم وجود منظمات لمساعدة المرضى بالسرطان، ومواساتهم ولو بالقول.. فما يقع أمام هذا المستشفى، وداخله، لا يتصوره العقل... المرضى وأهاليهم يجلسون في حديقة المستشفى، ينتظرون إيجاد سرير، ومنهم من يبيت في العراء ليقوم باكراً. فالمستشفى هو المستشفى الوحيد في المغرب، ويقصده المرضى من جميع أنحاء الوطن.

أستغرب لأن هنالك منظمات ضد مرض السيدا، والسكري، وأمراض أخرى، أقل حدة من السرطان.

هنالك منظمات ضد الإرهاب، وأنا أجد بأن السرطان هو أكبر إرهابي وجد على وجه الأرض، ولا أحد يعرف هذا المرض.

هنالك منظمات لمحاربة عدة أشياء، إلا هذا الوباء اللعين. فلم أسمع مرة، أو زارتنا إحدى المنظمات المعنية بالأمر. ودواء السرطان، دواء غال، ولا قدرة للكثيرين من المرضى على شرائه. بينما شخص من كل أربعة أشخاص مهدد بالسرطان. وهذا على الصعيد العالمي.

إن هذا المرض الفتاك يجب محاربته، وأنا على علم بأنه إذا توافرت الجهود وانضمت الإنسانية ضد شيء فبدون شك أنها ستهزمه.

وانتقلت إلى الجناح الآخر، جناح يسمونه المصحة، وهو يقع في نفس الطابق مقابل لذلك الجناح، بينهما مساحة صغيرة يقع فيها مكتب الطبيب المشرف، وفي داخل الجناح الأول يقع بيت الممرضين.

أما جناح المصحة فهو كذلك مصبوغ بالأزرق، وفيه غرف قليلة، بعضها واسع مريح، وبعضها في حجم غرف الجناح الأول. وكان الشيء المهم فيه هو الصمت. فنظراً لقلة المرضى الموجودين فيه كان صوت القيء قليلاً. المشكل الوحيد، الذي كنا نعاني منه، هو أنه في الليل قد لا يزورنا ممرض، حتى ولو كان المريض ضحية الموت، ذلك لأن حراس الليل كانوا لا يتعدون ممرضين.. يجلسان في الجناح الأزرق، لأن الوفيات كثرت فيه، وعليهم إدراك وعتق ما توصلوا لعتقه وإدراك ما يجب دركه. أما نحن فلم يكن لنا بهم اتصال إلا إذا هدى اللهُ أحداً، وفكر في زيارتنا. وحتى إشارات النداء أو الإنذار التي تكون عادة بجانب سرير المريض، والتي كانت توجد على شكل مصباح أحمر، في خارج باب الغرفة لم تكن متوفرة. والمعلوم هو أن باب الجناح الكبير مغلوق كذلك، ولا يرى أحد تلك الإشارة الضوئية.. وكان إن أصابت المريض منا حالة مرضية شديدة فعليه الانتظار والتفكير في الشهادة.. إلى أن يأتي موعد تغيير زجاجة «الشيميو»، هناك يجب على الممرض أن يأتي، لأن ذلك مكتوب عنده حسب برنامج معين يتركه له الطبيب.

لقد كان النظام المتبع في المستشفى، وبالأخص في تعاطي الأدوية، نظاماً محترماً من طرف الكل.

أذكر أنه كنا في جولة في فرنسا، ومن ضمن العروض كان لنا عرض في المسرح الشهير الأولمبيا، وكان ذلك في سنة 1975، لما كانت الأولمبيا تحت إدارة برنيو كوكاتربيس ولم يكن مديراً منظما فقط، بل كان فناناً بمعنى الكلمة. كان فناناً في حديثه، وفي جلسته، وفي كل شيء يروج حوله.

وأذكر أنه عزمنا للعشاء أنا والمجموعة، «ناس الغيوان»، في أحد المطاعم الباريزية، وفي خلال النقاش تعرضنا لموضوع النظام، والفنان، وهل يمكن أن يعيش حياة منتظمة.

قال رحمه الله :

- الفنان لا يمكن له ذلك، وإلا لن يكون فنانا. سيكون أي شيء آخر، إلا أن يكون فناناً لأن طبعه بوهيمي، يجب الخيال.. ويعيش فيه، ولا يمكن لنا تنظيم الخيال.. قد تنظم الإدارة، أو معمل أو موعد أو أي شيء آخر، وقد تنظم كذلك حياة المخلوق لكن لا يمكن لنا تنظيم حياة فنان، وإلا قتلناه، وقتلنا الإبداع بداخله.

هذه كانت وجهة نظر برينو كوكاتريس رحمه الله.

قلت :

- وأنتم السيد برينو، ما دمتم مشرفين على إدارة أحد أشهر المسارح ولكم مواعيد واجتماعات، ألستم منظماً وفناناً في نفس الوقت ؟

رد مبتسماً :

- أنا.. لست منظما بتاتاً، أنا أمضي وأعطي الرأي فقط.

كانت إدارة المستشفى تحاول مراعاة النظام، لكن كان بعض الممرضين يتلاعبون إلا في إعطاء الدواء.

وشيء آخر كان يقلقني في المستشفى، شيء لم يكن مراعى من طرف الممرضين ولا من طرف الأطباء خصوصاً في العمل. فالممرض أو الطبيب قد لا يأتي، ويطلب من صديق له بأن يقوم مقامه، وهذا أعده أنا هروباً من الواجب. فكم من مرة كنا نحتاج لطبيب الحراسة فلا نجده، أو يحتاج مريض لإدراي فلا يجده، لأنه عمل الثقة في الصديق، لكن الصديق كان لا يهمه ذلك.. فالمرضى كما قلت كثيرون، والمستشفى لا يمكن له إيواء الكل، ويضرب للمرضى مواعيد على مدي شهر أو شهرين وعندما تسأل المكلفين عن السبب، يقولون بأن مرجع ذلك لقلة الموظفين والأطباء، وكأن كلية الطب لا يتخرج منها أطباء السرطان.. أو أنهم يرفضون التخصص في هاته الشعبة.

أنا لا أريد أن أناقش هذا المقام، ولكن يجب صنع أي شيء، لأن الأمر بالغ الخطورة، ولأن آلام المرضى بالسرطان لا تطاق، إنه، واستغفر الله العظيم من قولها، مرض من أمراض جهنم، وسأصف إن شاء الله هذا الآلام في أحد الفصول الآتية، إن بقيت في الحياة، وإن لم تخني الذاكرة التي بدأت

تتذبذب.. قضيت في ذلك الجناح، أو المصحة كما كانت تسمى، ما يقرب من عشرة أيام.. منها أيام أخذت فيها الدواء.. وأخرى للراحة.. لأن مخلفات الدواء المزعجة والمؤلمة كثيرة، ففضلت المكوث في المستشفى..

قبل أن أنهي هذا الفصل.. أريد أن أنهيه بحادثة وقعت لي يوم دخولي إلى الجناح الأزرق، وقبل بدايتي لتعاطي الدواء.

كنت جالساً في غرفتي لوحدي، أراجع حساب عقلي، ومصيري، وإلى أي نهاية قادني المكتوب، فإذا بالبروفسور الكَداري، والدكتور المنصوري المكلف «بالشيميو» والدكتور بن سعيد، المكلف بالسكانير والدكتور الشرايبي الذي غادر المستشفى الآن.. أقول.. دخلوا علي يرتدون بدلهم البيضاء، مبتسمين كعادة الأطباء، يلقون أسئلة كأسئلة الأطباء.. وقفوا بجانبي كوقفة الأطباء، ثم تقدم مني لبروفسور وقال لي :

- أبًا عروب، أرى انشُوفْ ديكْ ليديا..

مددت له يدي، فأزاح عني قَميصي، وأخذ ينظر إلى ذراعي ويفحصها ومن غير شعور قلت له :

- ماذا ؟ أننا مصاب بمرض السيدا ؟

لا أريد أن أقول، كأن على رؤوسهم الطير، لأني رأيتهم كطيور بيضاء تنتظر في السماء.

لم يرد لبروفسور، بل تابع فحصه، فأعدت سؤالي، وأنا أجول ببصري وسطهم باحثاً في أوجههم عن الرد :

- هل أنا مريض بالسيدا يا بروفسور ؟

- لقد عثرنا في تحليل العينة على ميكروب يحف بالجرثومة، ولنا الشك في ذلك.

- ألكم الشك.. أم أنا مصاب ؟

- دخنت الحسين.

- حتى الثمالة.

- الكيف ؟

- كنت أكاد أكله.

- والحقن ؟

- ماذا تريد قوله ؟

- الهيروين مثلا، أو الكوكايين، فأنتم الفنانة تتعاطون لهاته الأشياء.

- سيدي.. أنا دخنت نعم، لكن تعاطيت لهاته المخدرات التي ذكرت، فهذا لا علاقة لي به. كان ذلك مرة أو مرتين في فرنسا قصد التجربة فقط، وبشيء قليل.

لا أظن بأن الحاج فهم قولي، فخرج وقال لي سأعود للنقاش معك. ذهب الدكاترة، وبقي معي الدكتور الشرايبي، وأخذ يتكلم معي على الحالات التي يعاني منها المريض بالسيدا، وأنا أرد.. وتيقن بأني لا أعاني من حالات السيدا.. وقال لي كذلك بأن ذلك النوع من السرطان الذي أنا مصاب به لا يظهر عادة إلا بعد تجاوز المرء الخمسين سنة. تصوّروا - لا أريد لكم أن تكونوا في مكاني - كيف قضيت تلك الليلة.

كانت ليلة عذاب لا يوصف ولا تعاش.

بل ليست ليلة واحدة، ثلاث ليال. فبعد قضاء تلك الليلة في العذاب والألم، والتخيلات، وماذا سيقول الآخرون إذا علموا بأني مصاب بالسيدا، خصوصا الأهل، وهذا المجتمع الذي لا يرحم المريض بالسيدا.. ويرى الفنان بشكل خاص، كيف سيراني، وماذا سيقولون إن مت بهذا المرض، وماذا وماذا وماذا ؟

أسئلة سوداوية، باتت تروج بداخلي طيلة تلك المدة، وأمامي نافذة الغرفة، وفي كل مرة أشعر بشيء يدفعني للارتماء منها، وكما قال أحد نسيت اسمه :

«وحده الانتحار هو ذلك الفعل الجبان الذي يتطلب كثيرا من الشجاعة».

نعم إنه الشيء الوحيد، الجبان الذي يتطلب كثيراً من الشجاعة.. ففي تلك الليالي علمت بأنني لا قدرة لي على الانتحار، ثم نفيت الفكرة من بالي.. وبقيت أصارع التساؤلات، والوسواس.

غد ذلك النهار الذي زارني فيه الأطباء، ولما أشرقت الشمس من النافذة، وأنا لم أذق طعم النوم، دخل علي ممرض لا أعرفه.. رجل صارم الوجه، يرتدي بدلة عسكرية، فوقها ميدعة بيضاء. قلت صباح الخير، فلم يرد، بل توجه توآ إلى منضدة حديدية، وضع فوقها حقيبته، أخرج منها شوكة وقارورتين صغيرتين للدم، ثم أخذ من ذراعي عينات دموية، ورحل من غير أن يقول شيئاً.

كنت، وهو يقوم بعمله، أصب عليه وابلاً من الأسئلة، لكنه كان لا يرد :

- أأنا مصاب ياسيدي!!؟ هل أنت جندي..؟ هل شكّوا في مرض السيدا؟ ماذا قيل لك؟ من أمرك بفعل هذا ؟

كان ينظر إلي بين الفينة والأخرى محركاً رأسه بحركة لا تريد قول أي شيء، حتى أني حاولت قراءة ملامح وجهه وحالته وهو في غفلة، لكنه عصي علي.

لقد عرفت، فيما سبق، رجلاً من هذا النوع.. عرفته في السويد. كان لنا عرض فني، وكان معنا فنانون آخرون، وراقصة.. وكان الجمهور غفيراً، ولما أنهينا الحفل عزمونا إلى أحد البارات المغربية، وبدأ المغاربة الشرب، وعندما يبدأون فلا محيد لهم عنها، حتى تراهم وقد انقلب الأسفل إلى الأعلى.

كنت من ضمنهم، وإذا بي ألتفت، فأجد شخصاً. كابتن قد تجاوز الخمسين سنة، طويل القامة، نحيفها، أصفر الوجه صارمه، يرتدي معطفاً أزرق وبدلة سوداء، وبحكم الجوار على خشبة البار، وكذلك «تامغربيت»، وجدت نفسي أدخل معه في حديث، وكانت البداية هي الحفل.. قلت :

- هل أعجبك الحفل ؟

- نعم ياولدي.. وبالأخص «الرأس الغيوان».

- ماذا ؟

- راس الغيوان.. ذلك الجوق الذي يغني الصينية.

- آه.. تريد أن تقول ناس الغيوان ؟

- نعم هو ذاك، وأعجبتني كذلك الراقصة.. لكن النساء قبحهن الله في كل مكان..

وجدته مفعماً بالغيض ضد المرأة، فأرخيت له صنارة النقاش ثم حكى قائلا :

- لقد تزوجت بها في «لبلاد وأتيت بها إلى السويد، وهنا بدأت تتغير «غير صاوبت لوراق، وتبدلات» أخذت تعاملني كالكلب.. وبما أن قانون السويد ينصر المرأة على الرجل، فهي قد وجدت بغيتها، وبدأت تخرج من البيت ولا تدخله إلا في ساعة متأخرة من الليل، وعندما أقول لها شيئا ترد علي، طلقني إن لم يعجبك هذا، وفي يوم هربت.. لقد استغلتني في الإتيان بها إلى هنا، وفي كل شيء.. لكن أنا لها بالمرصاد، فأنا في كل تظاهرة مغربية، أبحث فيها عن وجودها، وإني على يقين بأني سأعثر عليها، عند ذاك، سأنتقم من الكلبة.

قال هذا، وأزاح معطفه، وأظهر لي مسدسا :

- أتريد قتلها ؟

- وأرسلها إلى المغرب في صندوق.

نعم.. لقد رأيت مثل هاته الأوجه الصارمة في عدة أماكن، أوجهاً تخاف على عائلاتها قبل أن تخاف على نفسك منها.. رحل ذلك المرض العسكري.. وتركني بدون شرح، ولا فهم. لكن بعد مضي يومين أظن أو ثلاثة، جاء فرج الله سبحانه وتعالى، لما دخل علي الطبيب عزيز المنصوري، مبشور الوجه في يده ورقة وقال لي :

- الآن يمكن لك كتابة بأنك لست مصاباً بالسيدا على باب الغرفة.

استبشرت، وبكيت في إثر النبأ، ومما عانيت طيلة تلك المدة. فالثماني والأربعين ساعة كانت أحر من النار.

وأتاني الدكتور، وتناقشت حول موضوع هل يجب على الطبيب أن يخبر المريض بإصابته إن كانت خطيرة، كالسيدا أو السرطان، أم لا.. فوجدنا على أن إخفاء ذلك عليه أحسن، فقد تقع أشياء لم تكن الحسبان.

هذه واقعة أردت أن أنهي بها هذا الفصل، لأنها شيء لا يمكن لي عدم تدوينه في الجزء الثاني من فصول رحيلي إلى الألم. وغادرت المستشفى للراحة، لأنهم يوصون براحة واحد وعشرين يوما، وفي الثاني والعشرين يجب الالتحاق بالمستشفى للتداوي. كما أنه بالنسبة لمريض مثلي يجب عليه الابتعاد عن التدخين، والانفعال، والتعرض للبرد، وبذل الجهد. هذا ما أوصاني به الأطباء. أما ما أوصاني به الممرضون، خصوصا خديجة المنظفة، وحارسة المصحة بالنهار، وهو أكل «اللوبيا البيضاء، والعدس، وشرب الماء بكثرة».. فذهبت إلى البيت محمّلاً بوصايا علمية، ووصايا مطبخيّة. وهكذا انتهى الفصل الثالث من مسرحية عذاب الرحيل، وألم التشبث بالحياة، ويليه الفصل الرابع. ترى هل يطول العمر لكتابة ما تبقى من الرواية ؟

إن لحظة بسيطة قد تقلب لك المعايير، وكل الموازين، وكل ما يعول عليه وما يراد صنعه.

# الفصل الخامس

في بيتي بحي كوتي.

الزمن : لا وجود له.

أمامي علبة سجائر، ومعي بعض الأصدقاء ونحن في مرح، لا يزعجني فيه إلا تفكيري في الذهاب إلى المستشفى.

ضحكات تنكيت، وشيء بداخلي يقول لي لا تذهب، وآخر يقول عكسه.

شعرت بالقيء وأنا أدخل المستشفى.

هنالك مرضى يشعرون به، لمجرد ذكر اسم المستشفى، وذكر «الشيميو».

حكى لي صديق يشتغل في المستشفى، بأن أباه المصاب، عندما يرى أي ممرض، يشعر بالقيء.

وحكى لي كذلك ممرض آخر، بأنه التقى بمريض في سوق باب الأحد الموجود في العاصمة، ولما رآه المريض بدا يتقيأ.

أعراض نفسانية، نشعر بها نحن المرضى ونتعذب.

دخلت، وبدأت التداوي، وبدأ الألم والقيء والصمت والعذاب والانتظار.

انتظار قدوم أحد من الأهل، أو من الأصدقاء.. ليس للمواساة، لكن للإحساس بأني لازلت على قيد الحياة، وأني، كزائري، يمكن لي المشي في الشارع، واستنشاق الهواء براحة، وأن تلك المرحلة ستمر، ثم أعود إلى الرؤيا من خارج زنزانة استشفائية، لأرى الحياة، والناس في عُقر تسكعاتهم اليومية، وأتسكع أنا كذلك معهم.. هذا الإحساس، كان يدفعني للأمل، والتعلق برحمة الله، والابتعاد عن اليأس.

دخلت المستشفى في ذلك الصباح وأنا في حالة قيء، كان مكتب لبروفسور الكَداري قد بدت فيه الحركة.

خرجت من المكتب وأنا مصاب بالحيرة.

لقد أخذ لي صوراً شعاعية للصدر، فوجد بأن المرض لا زال كما كان عليه، وأنه يجب متابعة التداوي «بالشيميو» إضافة إلى الأشعة.

- أشعة ماذا ؟

- أشعة كل شيء، إلا أن تكون أشعة الشمس.

- إذاً أشعة نووية أو شيء من هذا القبيل.

- قد يكون ذلك.

حوار مر في عقلي، وأنا إثر الطبيب عزيز المنصوري في طريقنا إلى غرفة يقومون فيها بأشياء تقنية تقع قبل التداوي بالأشعة.

خطوط، ومقاييس فوق صدري، وعنقي وثديي الأيسر.

كان المرضى وأهاليهم في كل مكان.

البعض يجلس على البلاط، والآخر يجلس القرفصاء، ومتكئ على الحائط. غيره أمام مكتب ينتظر دوره في الفحص.

الممرضون، والأطباء، يعْدُون. البعض فيهم من يتظاهر بالعمل، جاعلاً من طوافه بين سراديب المستشفى عملاً، وإذا رأيته تظن بأنه يشتغل لكنه في الحقيقة يطوف من غرفة إلى غرفة، ومن بيت إلى بيت، ثم يعود إلى المكان الذي انطلق منه وهو قهى المستشفى، وإن سألته يقول لك :

- لقد تعبنا ياأخي. إن العمل كثير. والواجب يفرض علينا القيام به.

يا ربِ.

يا مَن بيده كلُّ شيء.

أجد نفسي الآن بين أيدٍ لا تعرف قيمة الإنسان.

يا ربّ.

يا من نفسي بيده.

لقد توصلتُ إلى الحرمان.

وتهتُ في غابات الألم.

إني أتعذب، وأنت تعلم هذا. وإني أترجاك أن توقف آلامي وأحزاني، بأية وسيلة، يا من له كل الوسائل.

ربي.

لقد وهن العظم مني.

ربي.

صرت إلى الحزن مقتاداً، بأشياء لا أعرفها. والذين يحيطون بي، في هذا المستشفى، همهم هو مصلحتي، وإن جلدي أبان ضلعي وعروقي، ولحمي أبان عصبي.. فمن إثر نحافتي صرت كالقش، أمر من جانب الناس، فلا يرونني. وإني أعيش وحيداً يا ربّ وليس لي أحدٌ إلاك. فكيف الذهاب لغيرك، وكيف أرجو غيرك يا ربّ، يا من له حكم رقبتي، أريد أن أرتاح.

غيرك يا من له حكم رقبتي.

وحسي، مع مهجتي.

وآخرتي، وعاقبتي.

وبكاي وفرحتي.

يا من يرسل الغيث.

يا من يعلم ما في الأرحام.

**يا من يعلمُ نفْسي بأي أرضٍ تموت، ومتى تموت، وفي أي حالة تموت.**
**يا مَنْ حكمُه بين الكاف والنون.**
**أتوسلُ إليك.. أن تنظر إلى حالتي، بعين الرحمة.**
**أتوسلُ إليك.. إني أريد أن أرتاح.**
**يا رب.**

إنه دعاء خارج عن سياق الأحداث، دفعه إحساس فدونته. وأنا الآن موجود بمصلحة الإنعاش في المستشفى، وقد عانيت صحياً، ورأيت بصرياً، وعشت جسمانياً ونفسانياً بعض الأشياء التي لا تمت للأخلاق ولا للتصرف مع المريض بشيء من الإنسانية.

الله يرى كل شيء. وهو الذي سيجازي عباده. أما أنا فلست الآن إلا مصدوماً. لا حول ولا قوة «واللهْ يجعلها كحْلة للزمان اللّي لاحْنَا وسط شْمَايَتْ».

وأنا في إثر الدكتور عبد العزيز المنصوري، لم تكن لي معرفة للمكان الذي أقصده، ثم وصلنا لى قاعدة باردة، ووضعوني فوق طاولة خديدية باردة، البرودة كثيرة في هذا المستشفى. تكون في عظام المريض وفي جسمه وكذلك في الصالات بالرغم من التدفئة.

❑❑❑

سطرْ وعَبْرْ ثم كنَّشْ، وقال لي :

- الآن إصعد إلى الطابق الثالث، وتناول علاجك. وفي كل صباح تعال إلى هذا الجناح للتداوي بالأشعة أو «البولا» كما يسمونها.

ومنذ ذلك اليوم صرت أنزل إلى ذلك المكان في كل صباح، معي ممرض، يدفع بي الكرسي المتحرك.

الناس ينظرون إلي، وكأني المريض الوحيد في ذلك المستشفى، بينما هم أكثرهم مرضى، ينتظرون دورهم في الدخول إلى غرفة العلاج.

غرفة واسعة كذلك، باردة، فيها نفس الطاولة الحديدية، ونفس البرودة. الفرق بينهما هو دخول وخروج المكلف لأخذ المقياس، يدير لولبا، ثم تعلو الصدر حديدة مفلطحة على شكل غطاء نصفي، فيه ثلاث قطع حديدية، لا أدري من أي نوع يه، فيها الأشعة، لونها أبيض براق كالزئبق، وينيره ضوء يأتي من الغطاء الحديدي فيمرق ذلك الشعاع الحديدي إلى صدري، ولا أشعر بأي ألم.. ثم يخرجون، ويتركونني في ذلك الوضع، وبعد برهة، يأتون وينيرون ضوء الغرفة، وتعود الأشياء كما كانت من ذي قبل، ثم أعود أنا إلى الطابق الثالث.

قلت إنني لا أشعر بأي ألم، لكن مع الأيام صار جلدي يتقشر - جلد صدري - وعظامه تؤلمني، وأنهار. خصوصا أنني عندما أعود إلى غرفتي أعود إلى القيء، إلى «بوكَليب لكحل».

وانتهت مدة التداوي «بالشيميو» التي هي خمسة أيام، ورجعت إلى البيضاء، لكني كنت أعود كل صباح إلى المستشفى قصد التداوي بالأشعة.

وفي صباح رأيت المرحوم العلامة الكبير الأستاذ المكي الناصري، رأيته في سيارة يقودها سائق، فسألت عنه وقيل لي بأنه مصاب في المعدة، وأنه يأتي هو كذلك للتداوي بالأشعة.

وطالت المدة.

خمسة أيام شيميو.

أما عودتي إلى المستشفى، فلقد كانت متأخرة.

لقد بدأ القلق والقنوط يلازماني، وأحس بنفسي تروح إلى الهروب من الدواء بحثاً عن كل شيء إلا الشيميو.

كان معي صديق في نفس الطابق، تعرفت عليه إثر دخولي إلى المستشفى. رسام من مكناس، يدعى حسن. حكى لي عن مشكلته، وهي أنه كان في يوم يشتغل في أحدا المعارض فسقطت عليه حديدة كسرت ضلعاً من ضلوعه. ولم يكن ذلك الألم قاسياً عليه، بحيث أنه ذهب إلى مستشفى الحومة، فأعطوه بعض المسكنات وانتهى الأمر. لكن مع مرور الزمن تكوّن له سرطان في المكان الذي تكسر فيه الضلع، ثم جاء إلى مستشفى محمد بن عبد الله، وبقي يتعاطى الشيميو، إلى أن قيل له : اذهبْ إلى بيتك فلا أمل في شفائك.

وعرفت كذلك في هاته المدة طفلاً صغيراً، اسمه رضوان، أصيب بسرطان البلعوم، وهو يتيم الأبوين، ليس له إلا جده الذي أتى به إلى «القاهرة»، أي مدخل مدينة الرباط، ثم تركه ورجع من حيث أتى. هذا على حسب ما حكى لي رضوان بنفسه، فبقي يسأل عن المستشفى إلى أن وجده، وسقط أمام بابه، فوجده الحاج الكَداري، عطف عليه وأدخله إلى المستشفى، فصار ابن الدار، لا يفارقها إلا في فترات معينة.

ونظرا لفقره، وعدم توفره على المال لشراء متطلباته اليومية، صار يبيع السجائر للمرضى وللممرضين.

طفل في مستشفى يمنع فيه التدخين على الكل، وإذا أراد طبيب أو ممرض أن يدخن فعليه أن يختبئ لأن لا يراه الغير. مستشفى كهذا فيه طفل كرضوان يبيع السجائر. أليس هذا مضحكا ومؤلما في نفس الوقت ؟

نعم، لقد اشتريت أنا كذلك من عنده، وكان يرفض وبعد طلب وجهد وتهديد كان يرضخ لي، فيبيعني سيجارة أو سيجارتين، ثم يولع لي ويقف أمام الباب حارساً.

كان لا يريد بيعي السجائر خوفاً علي.

ويوم انتقلت من الجناح الأزرق العادي إلى الجناح الأزرق للمصحة، كنت أنا وأخي الأصغر وخديجة المنظفة، وهي تصلح لي الفراش، فإذا بشخص يدخل علينا، طويل القامة، نحيفها يرتدي هو كذلك ميدعة بيضاء.

دخل وجلس بجانبي، ثم اغرورقت عيناه. وقال لي بأنه مستعد للإقامة معي في الغرفة، وما علي إلا أن أطلب ذلك من لبروفسور الكَداري..

سألته عن اسمه، فقال السي محمد، كان في الجندية، ثم التحق بوزارة الصحة.

كنت بالفعل في احتياج لمن يقوم لي بأعبائي، كالمساعدة على الذهاب إلى المرحاض للقيء، وحاجيات أخرى. فعرضت الطلب على لبروفسور ووافق. لكني لم أنتبه في ذلك اليوم لكلام قال له لبروفسور، وهو «واشْ غادي تجمعْ راسَكْ ولاّلاّ».

لكن مع الأيام فهمت بأن السي محمد عنصر مشاغب في المستشفى. وعاش معي السي محمد، وشاهد معاناتي، كما كان يقوم بكل ما احتاج إليه، وبشكل عفوي، وأخوي، وبحنان مفرط. لكنه في بعض الأحيان تقع له نوبات عصبية، فيثور ضد كل شيء، يسب ويلعن المجتمع، والمستشفى، وكل شيء.

وكان يحاول أن يكتب الزجل، وأراني كتيباً فيه بعض القصائد من نظمه، وبعض القصائد عن المستشفى، يهجو فيها الكل.

ولقد جمع لي السي محمد دفتراً سجّل فيه كل مواعيد التداوي. وكان ذلك بشكل دقيق أكثر من دقة المستشفى. الدقيقة التي دخل فيها الطبيب إلى غرفتي، وماذا قال، والدقيقة التي يجب فيها تناول الأكل، والدواء. لقد كان كالحاسوب.

وكما قلت فهو سريع التغيُّر، ولا أدري ماذا غيره في يوم، وأنا بمصلحة الإنعاش. فقد دخل قبل دوريته، وأخذ يفتح النوافذ علينا، والمعروف هو أن الكثير منا لا ينام إلا قليلاً من كثرة الآلام.

كنا، في مصلحة الإنعاش، أنا والممثل الحاج مصطفى الرباطي رحمه الله، الذي توفي في الأسبوع الماضي من هذا الشهر 1/ 1/ 1997. وكان كذلك مصاباً بنفس المرض. وشيخ أسود يدعى عقّا لا ينام، وشاب يدعى حكم، وشخص من مدينة مراكش، أجريت له عملية جراحية، مصاب بسرطان المعدة، وشيخ من قرية بربرية نائية، تملكه المرض اللعين في مخرجه، وعجوز أشرفت على الموت يقع سريرها في الطرف من الآخر من الغرفة، ذكرتني عزلتها بعزلة المرأة وسط هذا المجتمع.

كان معظم هؤلاء المرضى لا ينامون ليلاً إلا دقائق معدودة، بالرغم من تعاطيهم لأدوية مسكنة، وكنت في كل مرة أسمع أنيناً من مكان ما، وصوتاً ينادي.. يا ربّ.

والله، ولولا الخوف من الله عز وجل، لاشتريت قنينة غاز، وأقفلت الشبابيك والأبواب وأضرمت النار فينا جميعاً لنرتاح من هاته الآلام.

تصوروا. حكم، شاب في مقتبل العمر، مريض بالسرطان، مرضه لا تنفع معه عملية، لأن موقعه من الجسم كان في مكان يصعب استئصاله. والمسكين لا يجد الراحة، كان واقفاً أو جالساً. أو منحنياً.

يصعب التنفس علي. فأنا مصاب في الرئة، والكل يعلم ما دور التنفس لبني آدم.

الممثل الحاج مصطفى الرباطي مصاب بانتشار في كل جسمه، يتقيأ الدم، ويتألم في كل مكان.

الشيخ عقًا، هو كذلك انتشر فيه المرض، وفقد الأمل طبياً في شفائه.

البربري يبيت ويظل يئن من فرط ألم الضغط، ويوم دخل إلى المصلحة كانت بطنه منفوخة كبالون كبير.

الشاب المراكشي لا أحد يعرف ما بداخله. كل ما هناك هو الألم، وفي يوم ذهب ولم يعد.

المرأة، لم أسأل عنها، كانت تصيح بقوة، وهي الشمالية الأصل.

- ألعَدَاوْ.. ألْعَدَاوْ.. ألْعَدَاوْ الطبّة.

أظن الكلمة، كلمة استغاثة.

لم يكن لنا إلا الله، والأمل في الله.

نبيت ونظل نناديه، ونحن على علم بأن الإنسان لفظنا، وصار ينظر إلينا وينعتنا من سكان القبور، جاهلاً بأن الأعمار بأيدي الله.

ربّي.. إنك عالم بحالي، فتوفني مسلماً واحشرني مع الأبرار.

غدوت عنيفاً. وهذا مرجعه للدواء الذي نأخذه، والذي عماده هو المورفين. فعادة أنا هادئ الطباع، لكني صرت أشعر بنفسي متوتراً ودائم القلق. المهم هو أنني أحارب، وأتصارع مع المرض، والقلق. عرفت في المستشفى كذلك وقائع لأناس غيري كانوا لا يهتمون بالمرض. شاب موريطاني، يوم دخلت إلى المستشفى، صادفته في المقهى، فظننت أنه طبيب، لأنه كان يرتدي بدلة كالطبيب، ويتكلم ويضحك ولا يظهر عليه أدنى عياء. ولما زدت في السؤال عنه، قيل لي بأنه يزيل أنبوب «الشيميو» من ذراعه ليلاً، ثم يذهب إلى صديقة له، ويقضي الليل عندها ليعود في الصباح الباكر إلى مكانه. وبما أن عائلته كانت غنية، فلقد كانت كل طلباته تنفذ من ناحية الممرضين.

الكاتب والشاعر المرحوم محماد خير الدين.

كان ينتظر حتى يذهب لبروفسور والأطباء، ثم يخرج هو والسائق الذي كان مكلفاً بتنقلاته من طرف وزارة الشؤون الثقافية ويدخلان إلى أول بار، ولا يأتي إلى المستشفى إلا في ساعة متأخرة. وحذوت أنا كذلك حذوهم. لكن الفرق بيني وبينهما كان هو أني لما غادرت المستشفى غادرته لزمن طويل، أي ما يقرب من 18 شهراً.

## الفصل السادس

**الزمن** : ككل زمن مؤلم.
**المشهد الخشبي** : في كل زمن.
**الأشخاص** : لا ينتمون لأي فصيلة، إلا لفصيلة العذاب.
**الأماكن** : في مكاتب المستشفى، وشوارع المدينة الوحشية.

قال لي طبيب، وأنا أعد العدة لمغادرة المستشفى :

- أبَّا عروب، عيشْ حْياتَكْ.

ففهمتُ قصْدَه، وسألتُه :

- أليس لهذا المرض دواء ؟

أعاد علي ما قاله، ثم رحل.

كنت فرحاً في ذلك اليوم، فبعد أن أخذت لي صورة لصدري، قيل لي بأن الجرثومة قد تقلصت، وأنه عوض صفر زائد سبعة، صارت صفر ناقص خمسة سنتمتر، وأن لي عطلة، لكن قبل ذهابي علي المرور على قسم الجراحة.

ذهبت إلى ذلك القسم.

الناس أمامي واقفون في انتظار أي خبر. فكلما خرج ممرض من باب ذلك القسم، ترى الخلائق تهب نحوه متسائلة.

- خُويا.. سالآوْهْ ولا مزالْ ؟
- اللّه إرحْمُوا.

تذهب الجماعة لتبكي فقيدها.

- خويا دخلّوهْ ولاَّ بَاقي ؟
- لا، صافي، ها هو غادي يخرج من غرفة العمليات. كل شي دَازْ بخير.

تبتسم الجماعة، ويهنئ بعضها البعض بنجاح العملية، ثم يقفون في الانتظار. قالت السكرتيرة :

- آه.. الأخ باطما. انتظر قليلا لأخبر البروفسور.

كنت أقف أمام مكتبها، ولما قالت لي ذلك، أرخيت بصري إلى أوراق كانت تكتب فيها، ثم وضعت يدي على المكتب، فأحسست بشيء لزج. وإذا بالسكرتيرة تقول :

- حاسب.. حاسب يا باطما.. إن ذلك كله عينات.

بزَازَل.. ونِيُوفْ.. وأشياء مقطوعة.. أصابع أقدام وأيدي كلها في أكياس من «الميكـة» تراكمت على مكتب السكرتيرة، ولقد كانت هي تسجل ذلك في كتابها، لتبعث به إلى مراكز التحليلات.

مسحتُ يدي ثم قلت للسكرتيرة :

- أنا ذاهب.. سأعود فيما بعد.

قامت نافية لي بأصبعها، ومبتسمة.. مرددة على مسامعي :

- لا.. لا يا السي باطما.. إن لبروفسور صديقك، وسيقول لي لماذا لم تخبريني بمجيئه. قف مكانك، وانتظرني إلى أن أعود.

بعد برهة خرجت، ومعها البروفسور الجراح. تصافحنا، ثم قادني إلى مكتبه، صب لي قهوة وقال :

- أرني مكان تلك الأكياس، التي أجريت لك فيها العملية في الدار البيضاء.

- إنها هنا، في عنقي.

فحصني ثم قال :

- تعال غداً على الساعة الثامنة صباحاً، من غير فطور. يجب إزالة ما تبقى من تلك الأكياس، لأنهم في البيضاء لم يمسحوا الكل.

لا أعرف حتى الآن كلمة مسح كانت متداولة بين الجراحين، أم هي نكتة من صديقي.

غيّر طلبه شيئاً من فرحتي، لكني سرعان ما نسيت ذلك التغير. ولأنهي الموضوع، جئته في الصباح، حسب الموعد، ثم دخلت إلى غرفة العمليات.

قال لبروفسور :

- لا تخف إنها عملية بسيطة، لا تتطلب وقتاً كثيراً.

قلت في خاطري.. قيل لي هذا في يوم، قيل هذا في مستشفى غير هذا، في غرفة غير هاته، في ساعة غير هاته، وطالت العملية زهاء يوم بأكمله.

ابتسمت للبروفسور، وهززت رأسي موافقاً.

زاد قائلا :

- سنحقنك بحقنة بنج، قليلة التأثير. لن نخدر إلا المكان الذي سنجرح. وإن شعرت بأي ألم قل لي. لنتوكل على الله إذاً.

أحسست بشيء بارد يمر على رقبتي، وسمعت لبروفسور يقول لمساعديه :

- أسْبيري.

كلمة يتَداولها الجراحون أثناء العملية، معناها امتص أو جفف الدم.

خرجت من غرفة العمليات، وقد انتفخ كتفي «بالفاصما» التي تحتها جرح عميق، وبجيبي ورقة مكتوب فيها الدواء لمداواة الجرح.

وجعلني ذلك الجرح أعود إلى لبروفسور عدة مرات لأن العملية لم تنجح، وانفتح ثقب في مكان الجرح، كالثقب الذي رأيته في عنق المرأة وأنا صغير، فأعدت العملية مرة أخرى «وجاب الله التيسير». ثم انقطعت زيارتي للمستشفى، وعشت الفصل الخامس في ارتياح وراحة.

ألم يقل لي الطبيب عشْ حياتك.

امتنعت عن التدخينَ، وكان ذلك تدريجياً. وفي هاته الفترة كتبت الجزء الأول من السيرة الذاتية الرحيل، ورحلت معها عبر مدن المغرب أحاضر وأتكلم، وأقول ما يطيب لي. كما مثلت في فيلم «خفايا» للمخرج أحمد ياشفين. وكتبت كذلك سيناريو فيلم «زنقة القاهرة» وقام مسرح الحي بتقديم مسرحية من تأليفي بعنوانها «العقل والسبورة»، ومثلت كذلك في فيلم «دم الآخر» للمخرج محمد لطفي.

و«قسرت» ورقصت وغنيت. وكذلك صليت، وعبدت، وجعلت لحياتي برنامجاً خاصاً واتبعته. كما أنني أكملت الجزء الثاني من ملحمة لهمام حسام، وأنوي إكمال الجزء الثالث والأخير، إن بقي في العمر لحظات لذلك.

المهم، عشت فيها، أي في هاته الفترة التي غادرت فيها المستشفى، كما قلت في أحد المواويل الغيوانية :

يا جَمَّالْ ردْ جْمَالَكْ عْلينَا
يا جَمَّالْ راحْنَا أولادْ نَاسْ
وفي الخير تْربّينَا
لبسْنا الحريرْ ورمينَاهْ
عرفْنا الزينْ ومَا بغينَاهْ
وفي كلْمَة الحقْ بْقينَا
وتْجي انْتَ يا جمَّالْ
وتدوّزْ جمالَك اعْلينَا
يا جَمَّالْ نُوضْ اخْطينَا

أو كما قلت في إحدى القصائد، وكنت أنوي نشرها..

مَا يهمْني دي اللّي قالُو
ولاَ نتأسَّفْ عْلى ما فَاتْ
ولاَ إشدّوني سْنينْ طالُو
ولا تقُولْ حقِّيَ ماتْ
عَشْتْ الحبْ ومُوّالُو
عشتْ لُوفى أوْقَاتْ
عطيتْ باليَدْ والقلْبْ
وحركْتْ بكل العرباتْ
ولا شْكيتْ جْراحي طَالُو
ولا غنّيت قُلت ٱلآهَاتْ
ومَا يهمْني دِي اللّي قَالُو

شـريـنـهـــا وبـغـشـهَـا الحـيــاة
اليـــوم مــــثلي لحــــالُو
لَقـــبـــر نتــــدْفَنْ يا اغـــيَـــاتْ
الرحـمــة مَنْ المُولَى للعـبْـدْ حــالُو
وآنا لِيــــهْ مـــرسُـــومْ صُـــورَاتْ

□□□

وفي هذه المدة، عشقت شيئاً، أتمنى أن تكون لي الصحة لأعـود إليه ولو مرة واحدة، ألا وهو صلاة الجمعة. فلقد كنت أذهب إلى مسجد الحسن الثاني بحب وشوق، وأجلس في آخر المسجد، لأسمع خطبة الجمعة ثم أصلي مع الجماعة، ولما أخرج من المسجد أبحث عن المساكين لأتصدق.. ثم أزور قبر أبوي، وأعود إلى البيت لأنام مرتاحاً.

آه.

ما أحلى هذا البرنامج.. فلقد كنت أنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر.

كان هذا يقع لي في الأيام التي أواظب فيها على الصلاة.

وشيء غريب وقع في هاته المرحلة، ألا وهو المال.

يا سبحان الله.

لقد أتت الدنيا المادية، بعد أن ذهبت الدنيا الصحية. وحصلت على أموال لم أحصل عليها، يوم كنت أشتغل، وكما يقال باللسان الدارج «فاض الخير من القدّام ومن اللّور».

قال لي أحد إخوتي في يوم، وهو يودعني :

- حتى واحد ما لقاها كيف بغاها.

أجبته :

- أنا وجدتها كما أردتها، لكن غابت الصحة.

رصيدي في البنك ازداد، واشتريت سيارة جديدة، وغيرت ديكور بيتي. فبعد أن كان الفراش من الكتان، صار من «لَمْبْرَا». وكنت عندما أخرج للسهر يخاف أصدقائي علي، لأني أخرج ومعي مال كثير، أخسر ولا أبدي حسابا لما خسرته، ولا زلت حتى الآن والحمد لله.

وفي يوم كنت جالساً بأحد الفنادق، إذا بي أشعر بسعال. سعلت ولم أبد لذلك انتباها. لكن السعال تتابع، وبدأت قوته تزداد فغادرت المكان، وتوجهت إلى بيتي. وهناك. أخذتني نوبة سعال قوية إلى أن تقيأت. مرت شهور وأنا أسعل، ومات الكاتب محماد خير الدين رحمه الله. وفي جنازته التقيت بلبروفسور الحاج الكَداري، وسألته عن سر ذلك السعال، وهل يوجد

دواء له، فقال لي بأن مرجعه للمرض، وأنه لا دواء له، فإذا تداويت من السعال، فذلك معناه، أن الرئة تداوت، لأن المرض في الرئة.

لم تفرحني كلمات لبروفسور.. فغيرت الحديث إلى أن سألني عن غيابي، وهل أنا أتعاطى التداوي بالشيميو في مكان آخر.

وماتت كذلك في هاته الفترة أمي رحمها الله.. وصديق لي يدعى ادريس، وكان مثلي مريضاً بالرئة، ومن «زبناء» مستشفى محمد بن عبد الله.

صدمت في موت هذا الصديق.. فقد كان يكلمني، وأكلمه هاتفياً، وأزوره عندما يعود من مرحلة التداوي.

كان رحمه الله خفيف الدم، صاحب نكتة، سريع البديهة، يحب مساعدة الغير.. ويعطف على المساكين والبؤساء.. دائماً على استعداد لمساعدة الآخرين.

وفي أحد الأعياد، ذهبت كعادتي لزيارة بيت العائلة. عادة اعتدت عليها من القدم، وبعد تناول الفطور قلت لشخص من عائلتي تعال معي لنزور إدريس.

ذهبنا. وفي الشارع التقيت بأحد أبناء الدرب. سلمت عليه، وسألني إلى أين أنا ذاهب، فقلت لأزور ادريس، فردّ: رحمه الله ادريس لقد توفى ليلة البارحة، وسندفنه اليوم.

اختنقت بالدموع، وردد القولة. وأنا أشد على مقود السيارة بكامل قواي.

زاد الصديق قائلاً بعد أن حاول مواساتي:

- عبد القادر الماصة كذلك مات.

- عبد القادر الماصة.. متى؟

- منذ شهر.

آه يا ربي.

إن أصدقائي القدامى يتساقطون حولي كأوراق الخريف.

رباه، اللهم أنزل في قدرك اللطف.

رباه، إني لست يائساً من رحمتك.. فساعدني على تحمل هاته المصائب.

وودعت كذلك في هذه المدن أصدقاء تنكروا لي.

منهم عبد الرحمان قيروش، المكنى ببّاكا، عازف السنتير. ولقد كتبت كيف كان اتصالنا به في الجزء الأول الرحيل.. هذا المخلوق الذي عاشرته عمراً.. تنكر لي من أجل المال، وقال قولته المشهورة «أخدم التاعس للناعس».. لكن الإخوة ناس الغيوان صمموا على مساعدتي مادياً، وطردوا عبد الرحمان، ويشهد الله بأني رفضت ذلك، لأني أعلم حال عبد الرحمان، وأعرف كذلك الحالة المادية للإخوة.

أوف.. لا أريد التطويل في سرد قصة هذا المخلوق، حتى أن صديقي الفلسطيني الصحفي محمود معروف قال لي لا تكترث، ولا تكتب ما وقع. فلله في خلقه شؤون، ويوم لنا ويوم عليكم.

وبالفعل، فما إن بدأت بالكتابة عن ما وقع بيني وبين عبد الرحمان حتى شعرت بالقلق والعجز، فشطبت على ما كتبت، إلا هاته السطور التي تركتها للتاريخ.

وفي هذه المدة قرأت الكثير من الكتب، وقرأت القرآن الكريم، وسافرت إلى فرنسا قصد تقديم كتابي الرحيل، وهناك تعرفت على سيدة زوجها مريض بمرض السيدا، ولها معه ولد، وهي والطفل ليسا مصابين.

وتعرفت كذلك على عدة كتاب وشعراء.

فقضيتُ تلك الفترة، ونفذت ما قاله الطبيب، وهو : عش حياتك.

زهو، ولعب، وجد.

ليل، وحب، وعبادة.

أصوم كعادتي كل عام، وأزكي.

أسهر كعادتي كل ليلة وأغني.. وفي آخر الليل أبكي.

وفي صباح وجدتني عند طبيب مختص في أمراض الصدر والتنفس، وبعد فحصي، قال لي، بأني مصاب بضربة برد، فأعطاني أدوية من جملتها دواء يجب أن لا تأكل معه الملح.

نفذت أمر الطبيب، وتحسنت حالتي، لكن بعد أيام ازداد مرضي فبقيت بالبيت.

الحمى، والعرق، والقيء.

أحمد السنوسي، وسيدة تشتغل في بيته، وأخي رشيد وبعض الأصدقاء.

كانوا إذا خرجوا من عندي يبكون، ويقولون لقد انتهى.. ولم أجد بدآ من الدخول لإحدى المصحات التي توجد بجانب سكناي.

فرح بي الأطباء، وكذلك الممرضون، وأعطوني بيتاً بدون مقابل، فأمضيت في المصحة ثلاثة أيام، شفيت فيها، وتحسنت حالتي، وعاد جسدي إلى نشاطه، ثم غادرت المصحة إلى بيتي. وبعد مرور يومين، أصابني نفس التعب، فعولت على الذهاب إلى مستشفى محمد بن عبد الله.. لكن البعض من أهلي فضل رجوعي إلى المصحة نظرا لقربها من البيت ولأن حالتي الصحية لا تتحمل ذلك.. فكان ما قالوا.. ثم شُفيتُ مرة أخرى.

وسألت هل هناك طبيب مختص في مرض السرطان، فقالوا بأن هناك بروفسور يدعى السملالي.

في المصحات أخذ الأطباء يتكالبون على المادة.

إنهم يأخذون المرضى من المستشفيات المخزنية - المرضى الفقراء - ويعدونهم بشتى الوعود، والمريض يثق بكل شيء فيه شفاؤه، ثم يأخذونهم إلى مصحات يتفقون فيها مع أربابها على ربح مادي. وإذا سألتهم يقولون إن الدولة لا توفينا أجورنا. إننا نتقاضى أجراً قليلاً. ويركبونك في بحر سياسي،

متلاطم، وهم قد نسوا بأن رسالة الطب شيء آخر، وأن قسَمَ «هبيوكراط» صار قسم «إيبوكْريت».

المهم، ذلك لبروفسور.

شاب لم يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين.

قصير بعض الشيء، أبيض اللون، سمين، عيناه تتبعان مؤخرات الممرضات اللواتي يتقاطرن على غرفته لدى دخوله إليها.. لأنه كان شبيه «البليبْ بُوي» في حركاته ولباسه ولفتاته.

فحصني وقال لي، إن مرضك بالنسبة لي مرض سهل، ويمكن لي مداواتك. فهو عندي يعد «بْرِيكُول».

قلت :

- أحقا لي أمل في الشفاء ؟

رد :

- أربعة وعشرون في المائة.

إذا كانت الغواني وهن في صحتهن يغرهن الثناء، والكلمة الحلوة، فما بالك بمريض بالسرطان أثنى عليه الطبيب، ووعده بالكلمة الحلوة.

الوقت لا يمر بسرعة.

الدقائق والساعات، لا تريد أن تتحول عقاربها.

الليل طويل. طويل جداً. ظلامه ثقيل. ثقيل جداً. أشعة القمر تتسرب من نافذة الغرفة كأنها شبح يقف على رأسي منتظراً خروج روحي.

وهذا الصمت الذي كنت أحبه.

لقد غدا يعذبني، ويخنقني، وأشعر به عدواً يتربص بي.

هكذا كنت في تلك الغرفة التي رماني فيها لبروفسور، بالرغم من أنها كانت واسعة، وأثاثها فاخر، وأمامي صندوق التلفزيون، وبجانبي الراديو، وأنا في إحدى أكبر مصحات الدار البيضاء.. لكن لا وجود للراحة مع الشيميو الذي تسرّب إلى عروقي.

قلت لذلك لبروفسور في بداية التداوي، بأن عليه أن يكلم لبروفسور الكَداري، ليسأله عن ملفي، وعن الأشياء التي يتناقش فيها الأطباء إبان هاته الحالات. فاتفق معي، وبعد يوم قال لي بأنه كلم لبروفسور وأنهم اتفقوا على كل شيء.

وكالحمار أحنيت رأسي، ودخلت إلى الإصطبل.

ثلاثة أيام تداوي «بالشيميو» كانت من أيام الجحيم.

ألم المعدة، والمصارين، والقلب، والقيء، والرأس، والتنفس، و«القبض». هذا بالرغم من أني لا أقضي النهار والليل إلا والأنبوب مغروز في عرقي، كما كان يقع لي في مستشفى محمد بن عبد الله. فلقد كانت المدة لا تتجاوز أربع

ساعات. ثم أزيل الأنبوب، لأقوم بنفس العملية في الغد عادة. ولما كنت أقوم بهذا التداوي في مستشفى محمد بن عبد الله، كنت في الأول، أقضي خمسة أيام، ثم نظراً لصحتي تقلص ذلك وصار يوماً واحداً، أما ثلاثة أيام فلم أجرب هاته الطريقة. وكان من المفروض أن أقوم وأذهب لبيتي بعد مرور يوم أو يومين من التداوي، لكن العكس هو الذي كان. فلقد شعرت بجسدي عاجزاً عن الحراك، وكل أعضائي، وأحشائي تؤلمني، منهوك القوة لا قدرة لي على المشي. قلت مع نفسي بأن هذا مرجعه للدواء. وكنت أريد أن أسأل لبروفسور، لكنه كان يتركنا، ويذهب إلى شاطئ بوزنيقة لقضاء العطلة الأسبوعية مع أصدقائه. ولما يأتي الإثنين، يكون همه هو العثور على مرضى جدد. وكان كذلك يأتي إلى المصحة في يوم الخميس، للتسجيل، والسطو على مرضى جدد. أما الذين استحوذت عليهم كماشته، فأولائك صاروا بالنسبة له أرقاماً مادية فحسب.

وسألت كذلك ممرض الحراسة الليلية، وممرضة الحراسة النهارية، هل ترك هاتفه في المصحة، فأجاباني بالنفي. كان كل ما يصنع هو أنه يكلم أحد طلبته المبتدئين ويقول له مُرّ على المريض الفلاني، وقل له هذا، وعلى الآخر، أعطه هذا.

ومن المضحك هو أنه أرسل لي في يوم أحد طلبته، وكنت في حالة عصيبة من إثر ألم القيء.. واشتكيت ذلك للطالب. أتدرون ماذا وصف لي كدواء ؟ قال لي أشرب «الكوكاكولا». فلقد رأيت الناس المساكين في المستشفى الذين لا مال لهم لشراء حقنة «زوفران»، وهي حقنة لمنع القيء، يأخذون ذلك المشروب كدواء لمنع القيء. يا سبحان الله. أنا الذي ملئت معدته بالغازات وانتفخت مصارينه، أشرب مشروباً غازياً. والحقيقة هي أني نفذت الأمر، واشتريت قنينة وبدأت أشرب.

أليس من وصف لي الدواء طالباً يثق فيه لبروفسور ؟ فلم لا أثق فيه ؟

ثقت، وكان جزائي هو الاستغاثة بالله تعالى، والصياح طيلة ذلك اليوم.

قضيت بالمصحة ما يقرب من خمسة عشرة يوما بدون جدوى. وصرت لا قدرة لي على المشي.. مصاباً بالغثيان، عندما أقوم، وتتلاحق أنفاسي.. وفي يوم قال لي يمكن لك الخروج.

أديت ستة آلاف درهم التي كانت تهم لبروفسور والمصحة، وخرجت أصفر الوجه، نحيف الجسم.. فأركبني الأصدقاء في سيارة وحملوني في درج البيت لأنه لم تكن لي القدرة على صعوده، ثم وضعوني داخل البيت.. وبقيت وحدي لمصيري، أعاني ما أعانيه لوحدي.

قفلت علي باب داري، منتظراً قدوم الملاك، وشاع في الأوساط الفنية بأنني لا أستقبل أحداً، فابتعد عني المقربون، فيما أنا كنت لا قدرة لي حتى

على فتح باب البيت. فلولا عطف أحمد السنوسي وعائلته الذين كانوا يزورونني لمت جوعاً، وكذلك لولا زيارة إخوتي لي لمتُّ وسخاً، ونتانة.

في باريس فندق، اسمه فندق عدن، يقع في زنقة بيكَال، 35 زنقة بيكَال، فندق بسيط كنا نسكنه، لأننا ألفناه حتى صار الجمهور المغربي بفرنسا يقول له فندق ناس الغيوان. ألفناه، وألفنا العمال والعاملات.. وكانت الحركة دائبة، لأنه كان فندقاً وماخوراً، ككل الفنادق الموجودة في ذلك الحي.

ويشهد الله أنه لم نكن نقصده لأجل ذلك، بل لأنه يقع في حي تكثر فيه الحركة، ويوجد فيه كل شيء، وفي أي وقت أكل، مشرب، سجائر، صيدليات، سينمات، مكاتب.. وقريب من الحي العتيق، حي العرب بباريس. لأننا عندما نريد العودة إلى أرض الوطن نكون في حاجة إلى قضاء حاجيات لأهلنا، وأصدقائنا، يندر وجودها في الأحياء الأخرى، كالشاي الصيني والند الهندي وحلويات شرقية، وكتّان الصاري أو «المليفة».

أشياء ليست فرنسية، ولا مغربية.. وكذلك كان لنا في باريس المكلف بتسجيل أسطوناتنا، وأصدقاء مغاربة، وصديقات. فالمعروف عن باريس هو أن كل شيء يباع ويشترى فيه. وهو حي خطير، لم أر حيّا أخطر منه.. قد يقتل المخلوق من أجل دراهم قليلة. وأنا قد وقعت لي واقعة.. ونجّاني الله منْها، في ذلك الحي، بل وقائع وخرجت منها سالماً بإذن الله.

أما ما بقي في ذهني عالقاً هو أنه في ليلة كان لنا عرض في مدينة «بواتيي» وبعده دخلنا إلى باريس. وكانت الساعة تشير إلى وقت متأخر من الليل، فقصدنا فندق عدن، لكن الذي طرأ هو أن منظم الحفلات لم يحجز الغرف. فالفندق، كما قلت، كانت فيه الحركة كثيرة، والزبناء موجودين، لأنه يقع في حي ينام زواره ولا ينامون.. ذهبنا للبحث عن فندق آخر، وكانت برفقتي صديقة، وتفرقنا.. فكل ذهب إلى جهة للبحث عن فندق.

وجدت فندقا بأحد الأزقة. دخلته فوجدته طويلاً يصعد بشكل أفقي تقريبا. وقبل أن أقف أنا والصديقة، أمام الاستقبال الذي كانت توجد به امرأة شقراء بيضاء اللو طويلة القامة سمينة، صاحت هاته الأخيرة في شاب كان يعصد بعدنا، قالت له :

- أقفل الباب، ألا تعرفون القراءة!

كان الشاب جزائري الأصل، ودخل معها في نقاش حول العنصرية، وحول عدة أشياء، ثم خرج من غرفة بجانب الاستقبال شخص قوي. هذا كل ما أقوله عنه. إنه قوي وذو بنية اختلفت فيها العضلات. فرقبته هي رأسه، ورأسه هو رقبته، ويده هي كتفه، وكتفه هي يده.. كان بالفعل قوياً. لما رآني الشاب، قال :

- أنا لن أبيت هنا، ثم خرج.

- التفت الشخص إليّ، وقال :
- ماذا تريدون ؟
- بيت يا سيدي.
- مائتا فرنك للواحد.
- نحن نريد غرفة واحدة.
- وأنا أريد مائتي فرنك للواحد. إذا لم يعجبك رد الباب وراءك.
الناس تموت في بيكَال من أجل عشر فرنكات. وأنا كان بجيبي في ذلك الوقت كل ما حصلت عليه في الجولة، وكان ثلاثة ملايين. وبحكم أنه لا رصيد لنا في فرنسا وبحكم عدة أشياء، فلقد كان عمرٍ السيد عندما يأخذ ثمن الحفلة، يفرقه علينا ويعطي لكل واحد حقه و«إدبّر لمخو». تصوروا ثلاثة ملايين، تطوف أرجاء بيكَال وباريس.. والذي زاد في الطين بلة، هو أنه لما أردت أن أؤدي الثمن.. أخرجت أوراق كثيرة من جيبي، أوراقاً من فئة الخمسمائة فرنك.
فرأيت أعين الفرنسي والفرنسية، وقد جحظت، ثم قالا مرحباً بي :
- تفضل.. من أي بلد أنت ؟
- مغربي.
- إنه بلد الرجال.. لنا أصدقاء مغاربة، تفضل هذا مفتاحك.. إن البيت من هذه الناحية.
حملت حقيبتي، وتبعتني صديقتي ثم ولت الباب. أردت فتحه.. فوجدته مفتوحاً، ولا قفل ولا مزلاج له.
وهنا اكتويت بحريقي. فأخبرت الصديقة بشكوكي، ووافقتني على ما ذهبت إليه، واحترنا فيما نعمل وجاءتني فكرة بأن وضعت الفراش عرضة الباب، وكنا متعبين من جراء السفر، لكن عيني لم تنم، وبعد دقائق قلت لها ونحن ممتدين على السرير :
- ربيعة.
- نعم.
- قومي.
- إلى أين ؟
- إلى أي مكان، شريطة أن لا نبقى هنا.
قامت ربيعة، وارتدت حذاءها ثم حملتُ حقيبتي وخرجنا متسللين من الفندق.
وفي الشارع، قبل أن أبتعد عن الفندق رأيت سيارة تقف أمامي ونزل منها ذلك الشخص القوي البنية ومع ثلاثة أشخاص مثله.. كانت سرعة ربيعة في الهروب أكثر مني، إلى أن اختفينا عن ذلك الزقاق.

وعدت إلى فندق عدن لقضاء الليلة في بهوه، ففوجئت بوجود كل أفراد المجموعة إلا علال الذي ذهب عند أهله، فحكيت لهم الحكاية. وبتنا ساهرين نشرب الجعة، وننكت على مصابي.. معنا الصديق مارك، الحارس الليلي الذي لم أر في حياتي سكيراً فرنسيا مثله، مكلف بالاستقبالات والحراسة الليلية، هادئ، قصير القامة، نحيفها، صموت، يدخن السيجارة، ويشرب النبيذ في كل وقت، في الصباح، في الظهر، في المساء، تتصاعد منه رائحة التوم والنبيذ في كل وقت. وفي هذا الفندق، أي فندق عدن، رأيت أناساً يسكنون فيه تشبه حالتهم حالتي حينما خرجت من بين أيدي ذلك البروفسور من تحت جذر تلك المصحة.

أناس كانوا زبناء الفندق، دائمين، ويؤدون ثمن الغرف شهريا، صفر الوجوه، نحيفي الأجساد، لا يسمع منهم صوت وقلّ من تراه خارجاً، وحتى وإن خرج فإما للمرحاض أو شم الهواء من إحدى النوافذ.

بشر يمشي يتثاقل لا تكاد ركبته تحملانه. كنت مثلهم، بل شبهت نفسي بهم. وعندما أنظر إلى جسدي في المرآة، وأرى نحافتي تنطّ لي صورهم في عقلي، وكذلك صور اليهود الذين كانوا مستعمَرين من طرف الألمان، ورموهم في السجون، وقد تجرأ المستعمر على إدخالهم إلى الفرن أو دفنهم أحياء. كنت كالشبح.

وجاء أخي الأصغر الذي كان يزورني بين الفينة والأخرى، وصمم أن يعمل أي شيء، ففكر في التداوي بالأعشاب.

# الفصل السابع

الزمن : زمن الألم.
المشهد : كهل يبلغ سنه التاسعة والأربعين، بل شيخ في التاسعة والأربعين.
هرمٌ متمدّدٌ على الفراش، وبجانبه امرأة تدّعي بأنها تداوي السرطان، بعشبة مَعينة.

الأم السعدية.

امرأة «شريفة»، بوهالية «مخلخلة»، بيضاء اللون، طويلة القامة، سمينة، تتكلم كثيراً، وتخلط المذكر بصيغة الأنثى. كانت المسكينة مريضة بالسكري. وهذا كان مشكلاً بالنسبة لها، فهي تسكن في مدينة بعيدة عن الدار البيضاء، بما يقرب من مائة وخمسين كلمتراً، وعليها أن تقوم باكراً، لكي تركب الحافلة.

والمعروف عن أصحاب السكري بأنه يجب عليهم احترام نظام غذائي معين. فهي كانت تعاني إلى أن تصل إلى محطة الحافلة فتجد أخي في انتظارها ويكون ذلك على الساعة الثامنة صباحاً، ثم يأتيني بها وأكون أنا قد بت ساهراً من إثر الألم، ثم توقظني وتقول :

- ألعربي.. نُوضي تَاخْدي الدْوَا.

إني أضحك الآن عندما أتذكر الدواء.

فلقد كانت بداية التداوي هي أن تزيل قميصي، ثم تبدأ تبْسقُ عليه. وهذا هو السبب الذي يجعلها تستيقظ باكراً، وتأتي في ذلك الوقت. فَمن جهة على حسب قولها يجب أن يكون البساق غير ممزوج بالأكل، ومن جهة أخرى فهي تأتي باكراً لكي تتناول وجبة الفطور في وقتها، ولتحقن ذراعها بحقنة الأنسولين، أتمدّدُ أمامها، وتبدأ تبسق على وجهي وصدري وكتفي وظهري.

واكتشف أخي بأنه ورّطني في مشكل، فأخذ يحاول منعها، لكنها كانت تصر على أن يبدأ التداوي بالبساق، ومن بعد تأخذ عوداً صغيراً تضعه على نار هادئة تهش به على ذراعي وهي تدعو لي بالصحة والعافية، ثم تخرج من حقيبتها عشبة مطحونة خضراء، نسيت اسمها. كانت الأم السعدية تحكي لنا عن العناء الذي تلاقيه في جمع تلك العشبة، وعلى أنها تسافر إلى «شلوح» فتجدهم قد جمعوا لها العشبة ويبيعونها لنا بثمن باهض.

- كنشْريها بألف وخمسمائة درهم، وشُوفي شْحَال غالْيَا، كيلو بألف وخمسمائة درهم.

ثم تبدأ في وصف منافع تلك العشبة بأنها تدخل إلى الجرح وتقفله.

وكانت في كل مرة تأخذ مني مائتين وخمسين درهماً، كما أنها كانت تشترط الفطور بالبيض وشرب المشروبات الغازية بكثرة. وعلى المريض أن يأكل الكفتة ولا يأكل الحامض ولا الحار.

أشياء في علم الأم السعدية، قضيت فيها سبعة أيام، لأنها المدة التي كانت تحددها الأم السعدية للمرضى.

وحكت لي عدة حكايات.

حكت لي بأن طبيباً يوجد بمستشفى المدينة التي تقطنها، قال لها بأنه يجب عليها اقتسام ما تربحه، وأنها رفضت، وأنها لا تجد الراحة من كثرة الطلب، فهي تسافر من مدينة إلى مدينة لمداواة المرضى بالحي.

وتحكي كذلك عن جدها الذي فقد كل أولاده ولم تبق إلا حفيدته السعدية، فبزق في يدها وقال لها بأنه ترك لها ما تعيش به.

وبالفعل، ترك لها ما تعيش به.

فأنا مثلا، أخذت مني 1000 درهم ثمن حصص التداوي و250 درهم ثمن كيلو عسل حر لأن الدواء يجب مزجه مع العسل، هكذا على حسب قولها، عندما تذوق الجرثومة لذة العسل، تأكل كذلك الدواء فتموت.

وأخذت مني كذلك دجاجة اشتريتها لها في آخر الحصة الأولى، وهذا حسب التقاليد والعادة (عادة وتقاليد الأم السعدية).

حكت لي الخادمة بأنها لما رافقتها إلى سوق الدجاج اختارت الخادمة دجاجة صغيرة فرفضت الأم السعدية واختارت دجاجة أكبر، وهذه الدجاجة لا يجب أن يأكل المريض منها ولا عائلته، بل تكتفي الأم السعدية بمزج الدواء مع الدم والعسل، وتطلى به صدر المريض وظهره ثم تحزمه بحزام.

والذي وقع هو أنه لما أخرجت هذا المزيج وطلتني به مع العسل وغبراء الدواء سد ثقب جلدي فأحسست بالاختناق، ثم قمت جاريا إلى الحمام، واغتسلت وأنا أسب وألعن في أخي الذي سلط علي هاته المصيبة. الأم السعدية تتبعني قائلة :

– لَواهْ، لَوَاهْ ما خاصكْشي تقلْقي أوْليدِي.. لا تقلْقيشي، تْقلاَقْ راه إزيدْ عليكْ، وما بْقاشي إنفعْك دْواَ.

وحكت كذلك أنها كانت في يوم بإحدى الحدائق، في مدينة مراكش، تنتظر قريبة لها، وإذا بفتاة لا تتجاوز السابعة عشرة، تجلس بجانبها. أضافت الأم السعدية بأن تلك الفتاة لم تكن ترتدي إلا جلباباً قديماً وممزقاً، فانتبهت الأم السعدية لحالة الفتاة، ورأتها في حالة سيئة، ثم سألتها عما بها فقالت لها أنها توشك أن تلد وأن المولود سينزل في حينه.

قامت الأم السعدية وساعدت الفتاة على الولادة إلى أن ازداد المولود، ثم فتحت حقيبة يدها الشهيرة وأخرجت سكيناً قطعت به «المصران»، ثم لفت

المولود في كتانة، وعقدت مصران بوطه واعتنت بأمه إلى أن قامت، فقالت لها : أتريدين ابنتك؟ ردت الأم بالنفي، ثم غادرت الحديقة تاركة الأم السعدية وفي يدها مولود ازداد فوق كرسي الحديقة.

إني على يقين بأن الواقعة حقيقية، لأن سذاجة الأم السعدية و«هبالها» يجعلانها تقوم بأشياء غير عادية ولا تهمها النتيجة.

- ولدت، وخديت الدريا، وهي مشاتْ فحالها، وأنا ها أنا مربيا لبنيًا..

كبرتْ تبارك الله، ولأتْ من سهْم الزواج. وصح أسي العربي، وتزوجي بها.

تبنت الأم السعدية تلك الصبية وراحت الأم الحقيقية إلى المجهول.

ولم أر الأم السعدية منذ تلك الفترة.

❑❑❑

تعاطيت كذلك للدواء بالأعشاب، لكن بدون جدوى. وسقط شعر رأسي وشعر لحيتي، لأن أخونا لبروفسور كان يجمع لي الدواء أو يسرقه من المرضى الموجودين عنده في المستشفى، ومن ضمن تلك الأدوية سائل أحمر قيل لي في مستشفى محمد بن عبد الله بأنه لا يستعمل الآن.

أما حين كنت في المستشفى، فقد كانت شيميو مع رعاية خاصة. فبالرغم من الألم، تعود القوة والنشاط بعد مرور أسبوع، وشعري لم يتساقط.

إن الشعر الذي دخلت به إلى المغرب سنة 1969 من فرنسا، وكان عنواناً لعدة أشياء، وتبعه شباب، ها هو الآن يتساقط على الوسادة وعلى كل شيء. إلا أنّ هذا الشعر أصبح يسبقني إلى فمي في ساعات الأكل، فاستدعيت حلاقاً ثم حلَقَه.. وأنا أتذكر تلك الأيام.

ومن فرط الألم لم أجد بُداً من الذهاب إلى مستشفى محمد بن عبد الله.

كان كل الذين يعرفونني ينظرون إلي أول مرة، ولا يعرفونني، ثم يعيدون الثانية. وقد يتوقف المخلوق لمعرفتي، أو يمر كما وقع لي مع ميكانيكي المستشفى أو بناي. لا أذكر حرفته.

كان هذا الشاب يأتي لزيارتي في كل مرة ويواسيني، ويحكي لي عن مرضى سهل الله في شفائهم. في ذلك الصباح وأنا أدخل المستشفى، وأخي يدفع بي الكرسي المتدحرج، نظر إلي ثم مر من غير أن يبالي. لاحظت بأنه قال هذا شبح أعرفه، لكنه سرعان ما تراجع وقالت نفسه، لا. إن هذا لا أعرفه. تركته يمضي في حاله ولم أقل له شيئاً، وتوجهت إلى مكتب الحاج الكَداري، أنا وأخي.

ابتسم في وجهي كعادته وقال :

- مالك أبا عروب.

- أظن بأن المسرحية قد انتهت.

- لا يا أخي، «الأعمار بيد الله»، ماذا بك؟ إني أرى صحتك قد تدهورت.

وأعدت على مسامعه ما جرى بيني وبين البرفسور السملالي في تلك المصحة، ففوجئت أنا وأخي لما قال لنا بأنه بالفعل اتصل به، لكنه قال له بأن لا يقوم بأي شيء، وبأن لي دواء خاصاً وعناية خاصة.

تبادلت نظرات الاستغراب أنا وأخي، وتذكرت ما قاله لي يوم أن ذهبت معه لأشتكي له حالتي، بحيث لم تكن لي القدرة على المشي.. والتنفس قلّ. وكل ما أشعر به.

أتعلمون ماذا قال لي يومها ؟

- مرّ علي غداً، وسأزودك بالدم. إنك مصاب بفقر الدم، ويجب زيادة الدم في جسدك، وأعاهدك على أنك ستصعد البنايات جرياً.

أوشكت أن أوافقه، لكن تراجعت لما تراءت لي صورتي وقد انغرزت الحقن في دراعي فقلت له كفاني حقناً يا بروفسور، أريد أن أرتاح بضعة أيام.

- إذن.. ارتح الآن، وعندما تأتي مرة أخرى، سنقوم بهذا.. بهذه العملية.

يسأله أخي، وقد ظهر القلق عليه :

- أية عملية ؟

- في الصباح الدم، وفي العشية الشيميو.

كنت لما أحكي هذا الواقع لأي طبيب يستغرب، حتى أن أحدهم قال لي، هل لك تصفيات حساب شخصي مع هذا البروفسور؟ إنه أراد قتلك.

يا سبحان الله.

ألهذا الحد صار الإنسان رخيصاً في هذا البلد.

إن الطبيب والممرض، كما قرأنا، يعدان من ملائكة الرحمة، لكني أرى بأنهما أصبحا من ملائكة الشر.

أمنْ أجل المال، نضحّي بشخص ؟ إن ما وقع للفنان محمد الحياني دليل على ما أقول، وأنا أسجل هذا للتاريخ.

لقد فتحوا معدته وعجزوا عن اكتشاف الداء، ثم أغلقوا المعدة، وأخذوا عشرين ألف درهم، تاركين الدم يسيل، والفضلات، وكل ذلك داخل الأمعاء والقلوون، ولولا أمر الله لكان توفي في تلك الليلة.

أشياء تقع في المصحات تفزع القلب والروح.

قال البروفسور الكَداري، وهو يتأسف :

- لقد تعلم عندي ذلك الشخص، ونحن نلتقي في عدة محاضرات وعدة اجتماعات، لكن معرفتنا محدودة. اسمع. قم الآن، وخذ لك صورة لصدرك. اذهب إلى المصحة، وقل لهم بأن يبحثوا لك عن بيت. إن المرضى كثيرون، والبيوت قليلة.

لن أنسى سعال شخص وجدته أمام مكتب الحاج ينتظر نوبته للفحص. نحيف، أصفر، ككل المرضى.

ألا تلاحظون بأن هذا اللون لا يتغير، وكذلك الوصف، النحافة والاصفرار ؟

رجل نحيف أصفر، يرتدي جلباباً مترهلاً يسعل بقوة، ودائم السعال، متتابع «النهجَات»، يسيل من فمه لعاب لزج لا ينفك من فمه إلا بعد أن يزيله بأصابعه، أما البساق فلا يجدي.

هربت لما وجدته لا زال ينتظر دوره. فأنا مريض بنفس المرض، ولا أريد أن أرى إلى أي حد قد يصل بي. وصعدت أنا وأخي إلى الطابق الثالث.

هنالك مرضى ينتظرون قدوم الأطباء.

رجال، وأطفال، ونساء.

دخلنا إلى المصحة.

جاء الممرضون مهللين لدى رؤيتي.

ضحكنا، وحاولت جهدي أن أتظاهر بأني لست منهوكاً.

# الفصل الثامن

الزمن : انتهى، ولم تبق هناك إلا بعض الدقائق.
المشهد : بروفسور يدخل للمرة الألف إلى غرفة مريضه.
دخل يحمل الصورة.
صورة رئتي.
رأيت الورق البلاستيكي عدة مرات في حياتي الفنية ورأيت عدة صور.
ضرب امْعانًا أبًا عرّوب شي صُورة.
يقولها شابٌ أو شابة ثم نأخذ صورة ضاحكين مستبشرين.
أما الآن فإنها صورة لعضو من أعضائي لم يطلب مني أن آخذها معه، ولا أنا. فنحن مرغمون على أخذ الصورة لنا.
أخذ البروفسور الكَداري يشرح لي الصورة. قال وبالحرف :
- عندك انتشار في الرئة.
- معنى ذلك يا الحاج ؟
- معناه، أن الرئة «كَلاتْ لعْصَا».. انظر، وجّه الصورة إلى الشمس ثم قال :
- الأماكن البيضاء هي الداء، والأماكن السوداء لا زالت صحيحة. فعندما يسيطر الداء على الأماكن السوداء يقل التنفس، لأن الأوكسجين يصير لا يصل إلى ذلك المكان، وهكذا إلى أن تبيض كل الرئة، ويموت الإنسان مخنوقاً.
- الله أكبر.
لم أدر، حتى الآن، ما السبب الذي دفع البروفسور لكل هاته الشروحات، وبعنف. أما كان الأحْرى به أن يقول لي ذلك بلباقة، وهو يعلم بأن الفنان إنسان حساس، وسريع التأثر ؟ فأنا أعرف أصدقاء فنانة، إذا التقيت بأحدهم وقلت له إن وجهك أصفر، فقد يقضي النهار كله بين أيدي الأطباء.
بين أيدي الكمّاشَة.
بل في الكَمّاشة.
كمّاشَة الطّب.
الدّوامة الدّائرة.
والشعب يعرف هذا. فلقد بدأت الثقة تُفْقَد بين الطبيب والمريض. والمعروف أن الثقة في الطب من أحد أسباب العلاج، أما إذا فُقدت فعلى الدنيا السلام.

- تاراهم ولأوْ تابعين عالفْلُوسْ، هذا إلوحَكْ لهذا، حتى اتموتْ.

حوار يتناوله مرضى الشعب وأصحاؤه. ولكن هنالك بروفسورات وأطباء لازال ضميرهم يفرض عليهم القيام بالواجب نحو المرضى. فأصعب شيء هو المرض، والمرض معناه ألم، معناه معاناة قد تأخذ صاحبها إلى الموت. إذ لا شيء أصعب من المرض. ولهذا وجب مراعاة هذا القطاع في كل الدول. وإن النقاش مع الطبيب من أحد أسباب العلاج كما قلت سابقاً، فالطبيب بشرحه قد يزيدك مرضاً أو يخفف عليك، كما وقع في المستشفى الأول، عندما قدموا لي المرض، وأرسلها الطبيب خضراء في وجهي.

- إنّك بالفعل مريضٌ بالسرطان.

ويوماً دخلت، وقيل لي السّيدا. وفي هاته المرة، انتشار المرض في الرئة. ثم قال الكَداري : لكن المرض يتنامى بتثاقل.

قال هذا وذهب. وترك عقلي فوق النار.

ابكي يا عين، فليس لك الآن إلا البكاء.

ابكي، دموعك سلوة لمرض خبيث لا ينفع معه الدواء.

بكيتُ للمرة الألفين. كنت في كل مرة أبكي، وأتضرع إلى الله خاشعاً باكياً ليمنحني القوة على تحمل هذا المصاب.

وفجأة رجع البروفسور، فوجدني أبكي، ثم واساني، وقال لي :

- من فضلك، الآن تعرف بأن الشيميو صارت لا مفعول لها الآن في رئتيك. لكن قبل أن تذهب خذ لك صور لبطنك، ولظهرك لنرى هل انتقل المرض إلى مكان آخر أو لا يزال في الرئتين، أي هل انتشار عام أو في مكان واحد فقط ؟

ووقع شيء غريب، هو أنني بعد تلك الدموع أحسست براحة، ولا أعاني شيئاً. فسلمت أمري لله، وضحكت، وجاء أقاربي ثم بدأنا في تبادل النكث. فكنا ونحن نشاهد التلفزيون نعلق على البرامج، كأننا لا مرضى ولا مريض ولا مرض ولست في مستشفى الأمراض السرطانية.

وفي الليل، في الساعة التاسعة إلا ربعا، نعى إلينا التلفزيون الفنان محمد الحياني رحمه الله، ولقد كان كل الأهل على علم بذلك، ولم يريدوا إخباري به، ولما علمت بالخبر قلت : لقد ارتاح السي محمد، اللهم صلنا به مومنين.

وذهب الأقارب.. وفي الصباح أخذوني للفحص بليكوكَرافي.

أركبتني خديجة في الكرسي المتحرك أو المتدحرج أو كرسي المعاقين. المهم كرسي يدفع. دخلنا غرفة فيها طلبة جنود، أعطتهم ورقة ثم وضعوني فوق طاولة قصيرة هاته المرة، وعليها غطاء.

بدأ الطالب في الفحص، وعيناي لاصقة بوجهه. وفجأة وقف، وظهر عليه أن عثر على شيء ما ثم قام، ونادى على فتاة محتجبة فجاءت هي

كذلك، وكانت نفس الحركة ثم نادت للطبيبة. وبعد برهة اجتمع عليّ أطباء وبروفسور وطلبة، فأخذوا صورة لكليتي وذهبت الطبيبة.

نعم. أخذت صورة، لكن الآلة كانت معطلة. فبعد جهد وضرب الآلة بالأقدام والأيدي، أعطت الصورة، ثم أرجعتني خديجة إلى الغرفة. وفي المساء زارني البروفسور الكَداري وهو يحمل ملفا في يده، وقد ظهرت البشرى على وجهه، ثم قال لي :

- أبًا عروب، ربّما هنالك بصيصٌ من الأمل.

- ..... !!!

- نعم هنالك بصيص من الأمل، فلقد عثرنا على أصل الداء، إنه في الكلية اليمنى، وما علينا إلا استئصالها و«اجيبْ اللهْ التيسير».

كلمة، قد تعيد شعلة الحياة إلى الفرن البارد.

كلمة، حب أو حنان أو مواساة.

فبالأحرى كلمة مثل بصيص من الأمل، بالنسبة لمريض مثلي، خصوصاً إن كانت من رجل بروفسور.

أتذكر أن الممرضة، واسمها سعاد، بكت لبكائي من أثر الفرحة!

إن الخوف ليس من الموت، فالموت علينا واجب. وكما يقال «اختلفت الأسباب والموت واحد». لكن الذي يضر هو الألم. ألم المرض «الحي»، بما في الكلمة من حياة. إنه كالوحش يشعر به المريض وهو ينهش جسده ويأكله بشهية وبعنف، ولا أحد له القدرة على حبسه، إلا الله سبحانه وتعالى. فالمعروف، فالمعروف بأن دواء الشيميو وغيره لم يوافني بشيء، وأنه لازال البحث مستمرا عن الدواء.

فبدون الله سبحانه وتعالى وتصريفاته وحكمه وقدره، لا نجد لحبس هذا الداء وسيلة.

رحماك اللهم خذني إليك بدون آلام.

بصيص من الأمل حرّك العائلة والأهل والأصدقاء، وبالأخص ممرضة كانت تأتي عندما أكون في المستشفى طريح الفراش، ثم تأخذ يدي وتبكي خمس عشرة، عشرين دقيقة، ثم تقبلني في خدي وتذهب، وقلّ ما كنا نتعدى كلمة، كيف حالك ؟ بخير والحمد لله.

وفي يوم سألتها، هل سبق لنا أن تعارفنا، فأجابت والدمع في عينيها :

- لقد كان ذلك فيما مضى.

أما عندما سمعتْ ببصيص الأمل فقد فرحتْ كثيراً، وهنأتني، وكأنها هي المريضة، كما أتتني بالكسكس من بيتها، ثم جلست إلي وحكت عن معرفتي بها. لقد كان ذلك في السبعينات، وهي لا تزال طالبة، ونحن في أوجه عطاء ناس الغيوان، كما أنها قالت لي بأنها متزوجة ولها ثلاثة أولاد.

بصيص من الأمل أعاد الدم إلى وجهي، وأزال حالة الضغط.
بصيص من الأمل، جعلني أبتسم وأرتاح وأكتب.
وكتبت.
كتبتُ كلّ شيء جاء فكري.
عن الحب، والأمل، والتشاؤم، حتى أني كنت أحاول كتابة دموعي الفرحة والقرحة.

وكان لابد من أخذ عيّنة من «الكلوة» المريضة. فجئت إلى الموعد.

قالت الطبيبة المكلفة بـ «العينة» إنه علي شراء إبرة تصلح خصيصاً لأخذ العينات، إبرة يفوق طولها القلم، رقيقة، مثقوبة من الوسط على طولها. وقالت لي كذلك بأن أشتري أدوية أخرى.

نفذت كل ما طلب مني، وجئت محمّلاً به إلى غرفة «السكانير»، حيث ستجرب الأخذ.

طاولة حديدية طويلة باردة كالعادة.

وبعد انتظار مرجعه لآلة «السكانير»، التي كانت معطلة ويحاولون جهدهم إصلاحها، شرعوا في العمل.

أتنفّسْ.. اقطَعْ النفْسْ.

صوت نشاز.. في نشاز.. في نشاز.

وكان عليهم أن يدخلوا تلك الإبرة في المكان المحدد لها، أي على أن تغرز في الكلية.. وذلك شيئا فشيئا، وبالرغم من البنج، فقد كنت أشعر بالألم.

إبرة مسافرة في بطن العربي باطما.

يا حسرة على زمن كُنّا نسافرُ فيه ولا يسافَرُ فينَا

على كل، الحمد لله وحده.

وتوالت العملية إلى أن أخذوا سائلاً أحمر من كليتي. وكان ذلك مؤلماً بكثرة، بحيث أن الطبيبة حاولت إخراجه لكنها لم تفلح، فأخذت تغرز الإبرة أكثر فأكثر، لكن عندما مصت السائل نسيت أن أقول بأن تلك الإبرة مخرومة من الوسط، ليتسنى لهم إدخال أنبوب بلاستيكي رقيق وامتصاص السائل. جاء طبيب وقام بذلك، بحيث أنه لما أنهى شغله كنت أنا لا قدرة لي على تحريك رجلي اليمنى واصفر وجهي، وأحسست بألم مفرط داخل أمعائي وفي كليتي لم أشعر به من ذي قبل.

بصيص من الأمل يستحق أن أتحمل من أجله كل شيء.

بصيص من الأمل أعطي فيه ما تبقى من دمي ومن رئتي. بصيص من الأمل ربما هو الذي دفع محمد خير الدين لكتابة «الجناح الأزرق»، عندما كان نزيل هذا المستشفى. أترى أين الكتاب وهل أطلق على مولودي هذا عنوان : بصيص من الأمل ؟ وجاءت ورقة العينة من المختبر.

كانت النتيجة كلها احتمالات. ولا شيء يبين حقيقة في الكلي. لكن رغم ذلك صممت على إجراء العملية. وزارني البروفسور عبد الإله صوادقة، والبروفسور الكَداري، واتفقنا على إجراء العملية. لكن البروفسور نجمي رفض.

وأريد أن أحيي في أوراقي هاته مجهودات هذا البروفسور وما يحاول صنعه مع المرضى. فهو يواسي الكل بقلب حنون، ويجعلك تملك شعورك أمام الانفعال، وتتحمل آلام المرض.

أرسلني البروفسور نجمي لإجراء ما يسمى بقياس التنفس. ومرة أخرى هنالك كلمات متتابعة.

انفخْ.. انفَخْ.. انفَخْ.

أنبوب في الفم، ثم قَفلتْ أنفي بآلة صغيرة. وبدأت تصيح : انفَخْ. انفَخْ.. انفَخْ.

ونفختُ كل ما في صدري، كل ما في رئتي، كل ما وجدت القدرة عليه في ذلك الصباح. وفي النهاية قالت لي الدكتورة :

– التنفس عندك قليل شوية.

أظلمت الدنيا في عيني، واحتجب بصيص الأمل. فقلة التنفس معناه عدم القيام بالعملية، وكما قال البروفسور نجمي :

– أنا يمكن لي ضمانك ما دمت فوق طاولة الجراحة، لكن بعد ذلك لا أضمن شيئاً.

وبتعبير آخر أضحكني يومها، قال :

– خصّك الدّمَاري وحْدَك.

أي يجب أن أتنفس وحدي بعد نهاية العملية.

كلُّ شيء راح يا صديقي.
وهنا نحن نقف على مشارف الهاوية.
كلُّ شيءٍ راح، وما كنا في يوم نريد رواحه.
الصبحُ الجميلُ.
الظهرُ العزيز.
الغروبُ الفاتن.
والليلُ الأبدي.
وأياد من لجين مفتوحة تقول للقدر :
تعال يا صديقي.
اتركها، فهي ليست شيئاً.
إنها مجرد حلم.
لكن يصعب الاستيقاظ منه.

على ماذا سنستيقظ ؟
على الظلام أم على النور ؟
نحن مَنْ ألفَ الصبحَ والظهرَ والغروبَ والليل.
على ماذا سَنستيقظ ؟
ترى أهي غشاوة، أعني، أم صحوة أم اختناق ؟
ترى ألوني أسودُ أم أبيض ؟
تُرى أكلّ شيء بالفعل راح، مادام الأمل في الله ؟

❑❑❑

أزلتُ فكرة بصيص الأمل من فكري، ورجعت إلى ما كنت عليه، مسلماً أمري لله. أعيش بآلاهي وأحزاني. والغريب في الأمر هو أني لم أشعر بألم في كليتي طيلة حياتي، لكن عندما قاموا بما وقع صرت أشعر بالألم.

ومع الأيام أردت أن أتيقن هل بالفعل أنا مصاب في الكلي. أجريت تحليلات، فجاءت بأن الكلية صحيحة معافاة لا مرض فيها، ولولا عطف الله وحذاقة البروفسور نجمي، لفُتحَتْ أمعائي وأقفلَتْ ولن أعرف لماذا، أو ربما مت.

رجعت إلى بيتي، وانزويت في ركني، أمامي التلفزيون والكتب، والأكل والمرحاض وتدهور الصحة.

فجعلتُ لي برنامجاً. أقوم من النوم، وبعد الفطور أكتب وأقرأ أو العكس، إلى حدود الساعة الثانية بعد الزوال، ثم أتناول غذائي وأنام إلى أن تغرب الشمس، فأقوم لأشاهد التلفزيون. وفي السابعة مساء يأتي ممرض ليحقنني، وأسهر إلى حدود الثانية عشر ليلاً لأقوم في الفجر، أمشي بعض الخطوات في شرفة البيت، ثم أصلي وأنام.

كان برنامجاً جميلاً بالنسبة لي، تتخلله أوقات الصلاة وزيارة بعض الأصدقاء. كما أنني صرت آكل بكثرة، وبدأت حالتي تظهر في صحة جيدة، وأحسست أنني أتعارك بالفعل مع المرض وآلامه. دمت على هاته الحالة ما يقرب من شهرين. وفي الأخير جاء دور المرض ليهزمني. حملت أمتعتي ورحت إلى قسم الإنعاش بمستشفى محمد بن عبد الله، وهو القسم المكلف به البروفسور نجمي، لأنه كان قد زارني في بيتي وقال لي : إن شعرت بأي شيء فتعال إلى قسم الإنعاش.

# الفصل التاسع

الزمن : اللامنتهي.

المكان : قسم الإنعاش (عدم وجود الآلات بالنسبة للطبيب)، وسط الطابق الثاني يقع مكان كتب على بابه «الإنعاش : ممنوع الدخول»، (أنا أعلم الآن بأن رحيلي سار من مستشفى لآخر، ومن طابق لآخر، ومن مصلحة طبية لأخرى).

دخلت فالتقاني البروفسور بحفاوته وعطفه.

- مالك أبًا عَرّوب ؟

- قلة التنفس.. هل صحيح أنا مريض بقلة التنفس ؟

- ما علينا.

نادى الممرضين، فهبُّوا مسرعين :

- أعدّوا فراشاً لبًا عَرّوب، اتركُوه قريباً مني. قال هذا ثم ذهب.

يَاهْ..َ إن المكان مصبوغ بذوق، ونقي، ورائحته طيبة.

أين أنا ؟ هل في مستشفى محمد بن عبد الله أم في مستشفى آخر ؟

جاء البروفسور فأبديت له إعجابي بالقسم المشرف عليه، فأجابني وهو يقول :

- حَلْ.. حَلْ فمّك.

أعطاني سائلا أبيضَ شربته وتابع حواره :

- أنا أحاول جهدي أن أجعل من هذا القسم يصلح على الأقل ولو للرؤية، أما الأشياء الأخرى فهي تأتي تدريجياً.

قلت :

- أنا زبون معهد الأنكلوجيا، زبون منذ سنة 1993. ونحن في سنة 1996. لكن لم أر قسماً معتنى به أكثر من هذا، أذلك لأنه الإنعاش، أم شيء آخر ؟

- ربما لأنه الإنعاش، وربما لأني أراه في شكل آخر خارج عن ما يقع في المستشفى.

- أستغرب لمخلوق جعلت فيه الدولة ثقتها وتؤدي له أجراً ولا يقوم بواجبه أحسن قيام.

- هذا موضوع طويل يا بًا عرُّوب. على العموم كيف تشعر الآن، ألا يزال الألم يسيطر عليك ؟

- لا.. نعم.. صراحة أنا الآن لا أشعر بشيء. ماذا أعطيتني يا أستاذ ؟

كان الكل يناديه يا أستاذ.. وهو بالفعل أستاذ.

- أعطيتك شيئاً قليلاً من «المورفين».

أفزعتني كلمةُ المورفين. ووعى بفزعي. فأخذ يشرح لي ما المورفين. ثم قام، ودخل مكتبه، فأتاني بكتيّب يناقش موضوع المورفين.

ربّاه.. إني أعيشُ في عالم الموتَى.

ولقد رأيتُ أشياء غريبة ومفزعة.

رأيت الشاب الذي لا يفاجى عنه وهو يتألم، أكان واقفاً أو نائماً. ووصل إلى بلْع أربعمائة ملغ من المورفين، مائتين في الصباح ومثلها في المساء.

رأيت الشيخ عقّا الذي قضى أياماً في الإنعاش، وفي الأخير ذهب ليموت في بيته وهو يعاني من الآلام.

وذلك لأن الداء كان قد انتشر في جسمه.

رأيت الصديق حنيح مصطفى الرباطي، وهو يعاني، كما قال الممرضون.

رأيت الحاج بريك ذلك الشيخ البربري الأصل، ذهب إلى حيث لا أعلم.

في الصباح جاء أحد أبنائه وحده وأخذه، ذهب ولم يودع أي أحد.

كما توفي في رأس هاته السنة شاب اسمه أحمد، وشاهدت موته وهو فوق سرير الإنعاش، فكتبت شهادة حوله أرسلتها لجريدة «الاتحاد الاشتراكي»، ونشرتها مشكورة على ما قامت به. فالإعلام في هاته المواقف وهاته الحالات لابد أن يتحرك ويدعو المنظمات للنظر في هذا المرض الخبيث.

وأنا الذي يخط كلماته الآن بعد أن تفرق الكل، ولم يبق من النهار إلا الدعوات التي يدعو لنا بها الزوار، بحيث أنهم يدعون معنا، سواء كانوا يعرفوننا أو لا يعرفوننا.

- الله إشَافيكُم.

كلمة تسمع عندما ترسلها أفواه الزوار، أصحابها، لتملأ آذان كل المرضى.

❑❑❑

ها أنذا لا أزال في قسم الإنعاش، في يدي أنبوب الأكسجين الذي لا يفارق أنفي. ويجب أن أبتعد عنه، لأن الإدمان عليه خطير. يجب أن أتنفس طبيعياً كما قال لي البروفسور نجمي.

هناك في البعيد السيارات الذاهبة إلى الدار البيضاء والآتية منها إلى العاصمة.

آذان العشاء معلناً الصلاة.

الممرضان اللذان بقيا للإشراف على القسم يستعدان لمغادرته. ضمن هذا المستشفى، كل الناس تهرب إلا المرضى. فعندما تعلن ساعة خروج الموظفين، تراهم يتسابقون إلى الباب وكأنهم كذلك يريدون استنشاق الهواء.

- تصبح على خير ابًا عـرُّوب، أتمنى أن أراك غـداً في صـحـة جيـدة.
قال بدر الدين الممرض تحيته هاته، ثم خرج.. وزاد السيِّ محمد العسكري، مكملاً التحية بما طاب له، ثم خرجا.

وجلست أنا وحدي مستيقظـاً. أما الآخـرون فقـد كـان الكـل منبطحـاً في فراشه لا يتحرك.

والذي يخيفني هو الصمت، صمت المرضى. فعندما يمر الممرض المكلف بالحراسة الليلية ويعطي الدواء يذهب ويطفئ الضوء، فيبقى الصمت والأنين.

غداً سأخرج إن شاء الله، لأني شخصٌ يتأثر بكل شيء، يعاني من رؤيته للمرضى، ومن سماعه لأنينهم وتأوهاتهم. ولهذا يجب أن أرحل غداً.

❑❑❑

لقد كتب الجزء الثاني بإذن الـله. وكان هذا في ظرف وجيز، أي في خلال سبعـة أيام. ولقـد أردت أن أخط فيـه مـشـاكل المرضى الذين يعـانون من هذا المرض الخبيث. وهو مرض فتـاك. فكم حصد من أعنـاق، كم عانت الناس من الآلام. والغريب هو أن كـل الأمراض يعثر لها على دواء إلا مـرض السرطان، وهذا شيء يـدعـو للـنظر. فكيف الأمـراض الأخـرى وهذا لا ؟ إن الأمـر لله، وكيف شاء فعل.

يا ربّ.

كلمةٌ تُسمع في كل مرة، نابعةً من أعماق الألم، بخشوع ورجاء.

يا ربّ..

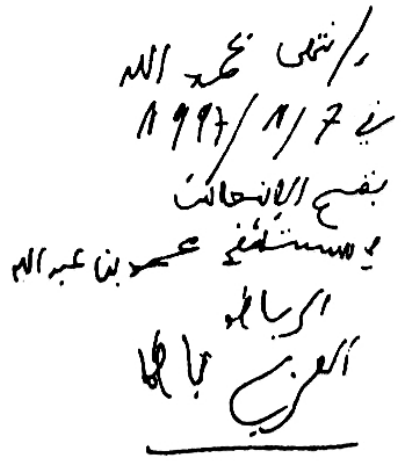

العياشي

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

ها أنذا لا أزال في قسم الإنعاش، في يدي أنبوب الأوكسجين الذي لا يفارق أنفي. ويجب أن أبتعد عنه، لأن الإدمان عليه خطير. يجب أن أتنفس طبيعياً كما قال لي البروفسور نجمي.

هناك في البعيد السيارات الذاهبة إلى الدار البيضاء والآتية منها إلى العاصمة.

أذان العشاء معلناً الصلاة.

الممرضان اللذان بقيا للإشراف على القسم يستعدان لمغادرته. ضمن هذا المستشفى، كل الناس تهرب إلاّ المرضى. فعندما تعلن ساعة خروج الموظفين، تراهم يتسابقون إلى الباب وكأنهم كذلك يريدون استنشاق الهواء.

- تصبح على خير أبّا عرُّوب، أتمنى أن أراك غداً في صحة جيدة. قال بدر الدين الممرض تحيته هاته، ثم خرج ... وزاد السّي محمد العسكري، مكملاً التحية بما طاب له، ثم خرجا.

وجلستُ أنا وحدي مستيقظاً. أما الآخرون فقد كان الكلُّ منبطحاً في فراشه لا يتحرك.

والذي يخيفني هو الصمت، صمت المرضى. فعندما يمر الممرض المكلف بالحراسة الليلية ويعطي الدواء يذهب ويطفئ الضوء، فيبقى الصمت والأنين.

غداً سأخرج إن شاء الله، لأني شخصٌ يتأثر بكل شيء، يعاني من رؤيته للمرضى، ومن سماعه لأنينهم وتأوُّهاتهم. ولهذا يجب أن أرحل غداً.

الثمن 30 درهما